قصص لا يسمحون لي بنشرها

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي





الطبعة السادسة

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

قصص لا يسمحون لي بنشرها..

عبد الوهاب السيد الرفاعي

تنويه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول:

أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها.

المعادلة!!

- لو كانت جريمة.. فستكون أغرب جريمة مرت علي في سنوات عملي!!.. أتمنى أن تكون حادثة وفاة طبيعية.. هذا سيريحنا كثيرا وينهي كل الغموض.

كانت هذه كلمات زميلي حين علم بوجود شبهة جريمة في بيت عائلة معروفة بمنطقة (الدسمة).. سألته عن سبب استغرابه أثناء توجهنا إلى البيت.. ليقول باهتمام:

- ولد في الخامسة عشرة من العمر عثر عليه أهله ميتا في غرفة المكتب.. الغريب أن الغرفة كانت مقفلة من الداخل ولا تحوي أي مداخل أو مخارج غير الباب!!.

قلت وأنا أنظر إلى الشارع بشرود:

- ربما هي حالة وفاة عادية.

رد نافيا:

- هل يعقل أن يصاب ولد بهذه السن بسكتة قلبية؟!.

غمغمت:

- سنعرف كل شيء بعد قليل.

أقول هذا وأنا أنتظر وصولنا على أحر من الجمر دون أن أُظهر مشاعري الحقيقية.. فدائما ما تبهرني وتثير خيالي (جرائم الغرف المغلقة) كما يطلق عليها.. ربما منذ فترة المراهقة حين كنت أبتاع القصص البوليسية وأقرأها بنهم حتى تكدست بها مكتبتي الصغيرة.. هناك قتيل في غرفة مغلقة مقفلة من الداخل.. والغرفة لا تحوي أي مداخل غير الباب.. فكيف تم ارتكاب الجريمة؟!.. سؤال بسيط لكنه يتطلب دوما إجابة معقدة.. ولا أبالغ لو قلت إن هذا كان أحد أسباب التحاقي بكلية الشرطة.. سنوات طويلة مرت على ذلك.. لكن ظل شغف (جرائم الغرف المغلقة) يستهويني حتى اليوم.. وهأنا الآن أمام إحداها.. إلا لو كانت حالة وفاة طبيعية كما يتمنى زميلي.. فهو احتمال وارد وربما هو المرجح.

وصلنا إلى البيت الذي بدا تصميمه وبناؤه قديما كحال الكثير من بيوت منطقة (الدسمة).. ينتمي ربما لفترة ثمانينيات القرن الماضي.. ووجدت سيارة الإسعاف تنتظر في الخارج مع دوريات الشرطة.. الجميع ينتظر وصولي.. ألقيت تحية سريعة على الجميع وأنا أتجه ناحية باب البيت.. فدخلت لأرى رب الأسرة جالسا في غرفة المعيشة وهو بأسوأ حال ممكن.. حتى شعرت أنه يكبت دموعه لكنه سيفشل وسينفجر باكيا في أي لحظة.. في حين أسمع في الطابق الأعلى صوت نحيب وبكاء نسائي لا يتوقف.. إنه أمر معتاد مع الأسف لمن يمارس مهنتي.

سألت أحد رجال الأدلة الجنائية:

- ماذا لدينا هنا؟!.

رد باهتمام:

- أسهل الاحتمالات وأكثرها منطقية أن لا توجد جريمة أصلا.. وأن ما حدث لا يتعدى حالة وفاة طبيعية.

سألته مرة أخرى:

- هل كان يعاني الولد من أي أمراض؟!.

تنهد وهو يقول:

- لقد سألنا الأب.. فأجاب بالنفي.

اتجهت بعدها إلى غرفة المكتب حيث توجد الجثة.. ألقيت نظرة فاحصة على الغرفة.. إنها أنيقة نسبيا وتقليدية للغاية بنفس الوقت كأي غرفة مكتب.. إذ تحوي أرففا خشبية للكتب مع مكتب في المنتصف.. ويوجد على المكتب جهاز كمبيوتر.. أما الضحية فهي كما علمنا لفتى لا يتجاوز عمره الخمسة عشر عاما.. جالسا على الكرسي أمام شاشة الكمبيوتر ورأسه ملقى على المكتب.. وكأنه نائم.

نظرت حولي قليلا بعين خبيرة.. زميلي يسألني بصوت هامس عن رأيي المبدئي.. فأهز كتفي كناية عن عدم رغبتي بالحديث الآن.. ثم.. عُدت إلى غرفة المعيشة وجلست مقابل الأب وقد بدأت دموعه تنهمر بصمت.. فقلت متأثرا:

- البقية في حياتك.. لكني أرجوك أن تتعاون معنا مهما بدا الأمر عسيرا.. لا بد أن نتأكد إن كانت الوفاة طبيعية.. أم إنها جريمة قتل.. أو حتى انتحار!!.. هذه التساؤلات كلها مطروحة قبل نقل الجثة للطب الشرعي.. لكن التحقيق معك ومع أفراد عائلتك سيسهل مهمتنا كثيرا.

نظر إلي بألم دون أن يرد.. ثم دفن وجهه بين راحتي يديه.. فسألته باهتمام:

- متى علمت بوفاته؟!.

قال بانهيار وهو يمسح دموعه بمنديل:

- منذ ساعات قليلة.. لقد انتبهت عند عودتي من العمل أن ولدي دخل غرفة المكتب صباح اليوم في وقت مبكر كونه لم ينم أصلا -كحال الكثير من أبنائنا في فترات الإجازة الصيفية- ولم يخرج منها أبدا رغم إن الساعة تجاوزت الثالثة عصرا.. أعلم أن هذا الجيل قد ينسى الزمان والمكان أثناء استخدامه جهاز الكمبيوتر.. لكن ليس لهذا الحد.. لذا رحنا ننادي عليه ونطرق الباب دون أن يرد.. نظرت عبر فتحة القفل.. لأراه ملقيا رأسه على المكتب.. عندها شعرت بالقلق.. فكسرت الباب لأجده بلا نبض.

تذكرت أن فتحة قفل الباب كبيرة كحال أبواب البيوت القديمة.. مما يسمح لك بالنظر خلالها.. سألته مباشرة:

- هل كان الباب مقفلا بالمفتاح؟!.. أم بالترباس؟!.

قال الأب بحدة:

- كيف لي أن أنظر عبر فتحة القفل لو كان هناك مفتاح بداخلها؟!.. لقد كان مقفولا بالترباس بالطبع.

قلت متعاطفا وقد اعتدت على مواقف كهذه:

- إنني أتفهم موقفك كحال أي أب توفي ولده للتو.. لكني أحاول كشف ملابسات ما حدث.. ربما أخذ أحدهم المفتاح من الباب فيما بعد.. أو ربما يكون المفتاح قد وقع أثناء كسرك للباب..

غالبا ما تكشف لنا الإجابات على تلك الأسئلة البسيطة عن كل شيء.. صدقني.

لم يرد.. بل تمخط في منديله.. لأسأله مرة أخرى:

- كم عدد أفراد أسرتك؟!.. وهل كانوا جميعا موجودين في البيت؟!.

رد بأسى:

- لدي 3 بنات.. وولدين -أحدهما المرحوم- أما زوجتي فهي موظفة في أحد البنوك وتنهي عملها متأخرة.. فلم تعرف ما حدث إلا حين وصلت قبلكم بقليل.

زفرت وأنا أقول:

- لا بد أن أحقق مع الجميع.. سأفعل هذا قريبا.

نهضت مبتعدا وأجريت اتصالا هاتفيا بالطب الشرعي لأبلغهم أننا سنرسل لهم الجثة.. وعليهم فحصها للتأكد إن كان الصبي قد تناول شيئا مسموما.. فالأطباء الشرعيون لن يقوموا بفحص الجثة وتشريحها بالكامل.. هذا مستحيل.. سيكون الأمر حينها شبيها بالبحث عن حبة رمل محددة في الصحراء!!.. يجب أن يعرف الطبيب الشرعي أين سيبحث تحديدا.. فحص دم الجثة مثلا.. أو المعدة.. أو.. إلخ.. ويكون هذا عادة بناء على تعليمات رجال الأمن ([1]).. المهم أنني أنهيت المكالمة وأمرت رجال الإسعاف بالقيام بعملهم ونقل الجثة إلى الطب الشرعي.. آملا الحصول على تقرير نهائي قد يحسم القضية.. لنخرج جميعا من البيت بعد أخذ أرقام هواتف الأب وأفراد أسرته.

فعلت كل هذا وأنا غير مقتنع أصلا بتلك الإجراءات الرسمية.. فهناك شعور غريب يسيطر علي أن الأمر أكبر بكثير مما يبدو عليه.. وإن تقرير الطب الشرعي لن يأتي بالجديد.. سيذكر فقط ما أتوقعه.. إن الولد لم يتناول أي شيء سام.

وبسبب ذلك الشعور.. قررت القيام بزيارة أسرة الميت -أو القتيل- في اليوم التالي فحسب.. وهذه المرة طلبت لقاء جميع أفراد الأسرة في غرفة المعيشة.. لأقول لهم صراحة:

- سنحصل على تقرير الطب الشرعي غدا أو بعد غد.. وسنسمح لكم بعدها بدفن جثمان الولد.. لكن هذا لا يمنع استكمال التحقيق بدلا من إضاعة الوقت في الانتظار.. فهناك الكثير من التساؤلات تدور في رأسي ولم أطرحها عليكم بعد.

قال الأب متهكما:

- ربما تضيع وقتك أنت أيضا بهذا التحقيق لو اتضح لك من تقرير الطب الشرعي إن أسباب الوفاة طبيعية!!.

رمقته بنظرة جانبية دون أن أعقب.. بالطبع لن يقبل كأب أن تكون هناك شبهة جريمة قتل في بيته.. خاصة وأن الصورة الأولية لا تقول ذلك.. لكني رغم كل شيء.. قلت بصوت مرتفع نسبيا:

- أريد أن أعرف أولا.. هل لاحظتم أي شيء غير عادي قبل وفاة المرحوم؟!.

هزوا رأسهم نفيا.. لتقول الأم بحرقة وبملامح توحي إنها كانت تبكي طوال الوقت:

- منذ بدأت الإجازة الصيفية وولدي يسهر ويقضي جل وقته في غرفة المكتب.. إنه مولع في الأفلام الأجنبية.. يشاهد الكثير منها كل يوم.. لقد تحدثت إليه كثيرا وطلبت منه أن يقضي

بعض الوقت معنا دون جدوى.

طرحت سؤالا قد يبدو لهم مفاجئا بعض الشيء:

- هل كان هناك من يكرهه إلى درجة القتل؟!.. الأولاد في هذا السن قد يحملون عداوات تجاه بعضهم من أجل فتاة مثلا.. أو لأي أسباب أخرى.. أنتم تعرفون نوعية الشجارات التي تحدث في المجمعات التجارية بين الحين والآخر لمجموعة مراهقين قد تنتهي بإصابات جسيمة.. وأحيانا القتل.. ولأسباب غالبا ما تكون تافهة.

حسنا.. لقد توقعت كل شيء سوى أن أجد علامات الارتباك على وجوه الجميع تقريبا.. ليقول الأب بشيء من الخزي:

- بصراحة.. كان المرحوم سيء الخلق!!!.. أعلم أنه من العار أن أقول عن ولدي كلاما كهذا.. لكنها الحقيقة مع الأسف.. فقد كان شخصية سايكوباثية ([2]) ارتكب الكثير من الأفعال المشينة.. إذ كان يعذب الحيوانات باستمتاع.. ويضرب أطفال أقاربنا بعنف.. وربما لم تلاحظ أنني أعاني من عرج خفيف لأن المرحوم صدمني ذات مرة بسيارتي بعد أن سرقها وبعد أن حاولت منعه!!.. كما تسبب بمشاكل عديدة مع جاري حين تسلل إلى بيته أثناء سفره مع عائلته.. وقام بسرقة بعض مقتنياتهم.. فتطلب الأمر العديد من الوساطات كي يقتنع جاري ألا يتقدم بشكوى رسمية.. بل إنه سرق المال من محفظتي ومحفظة والدته أكثر من مرة رغم أننا نوفر له كل شيء.. هذه الحقيقة.. لا أستطيع أن أخفيها عنك لأنك ستكتشفها بنفسك أثناء التحقيقات.. لقد حاولت كثيرا أن أكون بمثابة القدوة له.. فأنا أعلم جيدا أن المراهق لا يحتاج إلى النصائح.. بل إلى القدوة.. إلا أن هذا لم يجدِ معه.

سكت طويلا وأنا أدرك مدى صعوبة أن يقول أب كلاما كهذا عن ولده.. خاصة بعد وفاته.. عموما لا يفاجئني أبدا وجود شخصيات كهذه.. فالعنف ممتع.. ويعتبر علاجا نفسيا يخفف الألم عند الناس.. هذه حقيقة يتجنب ذكرها الأطباء النفسيون.. وأبسط دليل على كلامي رغبتنا أثناء الغضب بكسر شيء.. أو حتى استخدام العنف ضد من تسبب بغضبنا.

نظرت بعدها إلى الجميع منتظرا أن يضيفوا شيئا.. لكن.. لم يعقب أحد على كلام الأب.. سألتهم عن الخادمة.. فأخبروني أنها في غرفتها.. طلبت منهم لقاءها.. قد تكون المشتبه الأول لو اتضح أن هناك شبهة جنائية خلف حالة الوفاة هذه.. وبالفعل.. بعد لحظات.. كانت الخادمة تقف أمامي في الصالة.. إنها من جنسية أثيوبية.. وهذا ما أثار شكوكي حولها.. فهناك عدة جرائم ارتكبت من قبل هذه الجالية مع الأسف حتى باتت سيئة السمعة.. سألتها:

- أخبريني.. متى علمت بوفاة المرحوم؟!.

فردت بعربية جيدة:

- حين سمعت سيدي يحاول كسر الباب.. إذ خرجت من غرفتي لأستوضح ما يحدث.. ثم رأيت أفراد الأسرة يندفعون جميعا إلى الداخل.. وأخيرا صوت الصراخ والبكاء والنحيب بعد أن تأكدوا من موت المرحوم.

سألتها دون تعليق:

- منذ متى تعملين هنا؟!.

ترقرقت الدموع في عينيها لتقول:

- منذ أكثر من 10 سنوات يا سيدي.. لقد جئت هنا والمرحوم طفلا في الخامسة.. فرأيته يكبر أمام عيني.. إنه بمثابة ولدي رغم إهاناته المستمرة لي.

سألتها بنفاد صبر دون اكتراث لكلامها العاطفي:

- ألم تلحظي أي شيء غير عادي في البيت قبل وفاته؟!.. أي شيء على الإطلاق.. مهما كان بسيطا وبعيدا عن القضية بنظرك.. هل زاركم أحد في الأيام القليلة الماضية؟!.

قلتها وأنا ألتفت للجميع وأؤكد بحزم:

- السؤال موجه لكم جميعا.

ساد الصمت لحظات قليلة.. والكل ينظر إلى السقف أو الأرض.. لتقول الخادمة فجأة:

- كل شيء كان عاديا.. سوى....

تنبهت حواسي.. لأسألها وأنا أحثها على الكلام:

- سوى ماذا؟!.

قالت بشرود:

- لقد زارنا النجار لإصلاح باب الحمام في الطابق العلوي بعد أن انكسر قفله.. ثم ذهب إلى غرفة المكتب ليضع ترباسا للباب!!.

التفت بسرعة إلى الأب مستوضحا.. حسنا.. يجب أن أذكر هنا أنني أعمل في المباحث الجنائية منذ سنوات طويلة.. لذا لا يمكن أن تفوتني نظرات التوتر والارتباك التي لاحظتها على الأب!!.. فسألت الخادمة بحذر:

- متى حدث هذا؟!.

ردت وهي تحاول أن تتذكر:

- منذ أيام قليلة.

قطع الأب صمته ليقول بارتباك ملحوظ:

- نعم.. لقد استبدلت القفل بالترباس.

قلت مبتسما:

- لقد قالت الخادمة ذلك للتو.. لكن لماذا؟!.

رد بمزيد من الارتباك:

- مفتاح غرفة المكتب ضاع أكثر من مرة لأننا جميعا نستخدم هذه الغرفة.. ففكرت بوضع الترباس.. إنه أفضل.

لم يقنعني جوابه لسبب لا أفهمه.. حسنا.. أعتقد أنني اكتفيت.. شكرتهم على وقتهم وخرجت من البيت متجها إلى مكان عملي وأنا أفكر بأحداث تلك القضية.. الأمر واضح للغاية

كما قد يبدو للجميع.. لا يوجد أي أثر لسلاح.. أو لمقاومة.. ولا توجد جروح أو دماء على جثة

المرحوم.. لماذا يصر عقلي إذا على أنها جريمة قتل؟!.. لا أعلم.. ربما هي سنوات الخبرة فحسب.

بعد يومين من التفكير دون نتيجة.. كنت جالسا في مكتبي حين وصلني تقرير الطب الشرعي أخيرا.. يقول التقرير إن الولد لم يتناول أي مواد سامة والمرجح أن الوفاة حدثت لظروف طبيعية مفاجئة.. هذا ما توقعته.. وهو لا يثبت شيئا على كل حال.. فهناك جرائم قتل كثيرة خدعت الطب الشرعي فبدت وكأنها وفاة بسكتة قلبية غامضة الأسباب.. لكن كيف.. كيف أثبت إحساسي؟!.. لماذا ينتابني ذلك الشعور بوجود جريمة؟!.. عموما إحساسي ليس بدليل.. الأمر بيدي الآن لأغلق ملف القضية بعد تقرير الطب الشرعي.

أغلقت باب مكتبي وظللت جالسا أفكر أكثر من ساعة وأنا أنظر إلى السقف بشرود دون أن أسمح لأحد بالدخول.. لا أدري لماذا طرأت في ذهني قصة بوليسية قرأتها ذات مرة عن جريمة ارتكبت بذكاء لا يصدق في غرفة مغلقة من الداخل.. ولا يوجد لها أي مداخل أخرى.. قد ينطبق الأمر على هذه القضية أيضا.. لا بأس.. التأخير ليوم أو يومين إضافيين لن يضر أحدا.. ستكون هذه محاولتي الأخيرة قبل الاعتراف رسميا أن حالة الوفاة هذه لا تحوي أي شبهة جنائية.. عمّ أتحدث بالضبط؟!.. ستعرفون بعد قليل.

أخرجت هاتفي النقال واتصلت بالطبيب الشرعي لأخبره بشكوكي.. وطلبت منه فحص الجثة مرة أخرى بناء على تعليماتي الجديدة.. وبالفعل.. لقد ذهل من طريقة تفكيري وعبقريتي على حد قوله!!.. وأنهى المكالمة ليبدأ العمل مباشرة.. و.. في اليوم التالي فحسب.. اتصل بي هاتفيا وأخبرني بما اكتشفه على أن يرسل تقريره إلي في اليوم التالي بصفة رسمية.. ومنذ أول كلمة قالها.. اتسعت عيناي دهشة!!!.. يا إلهي.. لقد كنت محقا في ظنوني إذا.. كلام الطبيب الشرعي يؤكد ذلك.. هذا لا يصدق.. خرجت من مكتبي بحماس متجها لبيت الضحية.. فطرقت الباب بثقة هذه المرة.. ليفتح لي الأب ويدعوني للدخول وهو في حيرة واضحة كونه علم بأمر تقرير الطبيب الشرعي الأول مما يعني انتهاء الأمر بالنسبة له.. فلا يوجد أي سبب لزيارتي هذه من وجهة نظره.

جلست معه في غرفة المعيشة.. ثم قلت مباشرة بلا مقدمات لأرى تأثير كلامي عليه: - أعتقد أن هناك جريمة قتل.. أحدهم قتل ولدك!!!.

اهتز الأب بمكانه دون أن يرد وانعقد لسانه تماما.. فأكملت بصرامة:

- لقد كادت حالة الوفاة هذه أن تخدع الجميع.. لكنا عرفنا إنها جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد بعد فحص جديد للجثة قام به الطبيب الشرعي بناء على تعليمات محددة مني.. لم يتبق الآن سوى معرفة هوية الجاني.

استجمع الأب شتات نفسه ليقول بصوت خرج متخاذلا:

- عن أي جريمة قتل تتحدث؟!.

قلت بقسوة متعمدة:

- جريمة قتل في الغرفة المغلقة.. إنها معضلة صعبة ومعقدة.. وغالبا لا يحلها رجال المباحث.. لكني لحسن الحظ قرأت قصة مماثلة منذ مدة طويلة أوحت لي بهذا الاستنتاج الذي اتضح أنه صحيح في النهاية!!.. وهذا تحديدا سبب زيارتي.. لقد أخبرتني أنك استبدلت قفل غرفة المكتب

بالترباس منذ أيام قليلة.. لا يمكن أن تكون هذه صدفة.. خاصة لو علمنا أن ولدك مات مسموما بالغاز!!!.

شحب لون الأب حتى بدا وكأنه خلا تماما من الدماء!!.. فأكملت بصرامة:

- من الواضح أن أحدهم قام بضخ غاز سام من خلال أنبوب أدخله عبر فتحة القفل.. ليستنشق ولدك الغاز ويلقى حتفه.. فلا يوجد مجال لإدخال الأنبوب تحت فتحة الباب كونها مسدودة كما لاحظت في زيارتي الأولى لكم.. لهذا أزلت المفتاح ووضعت ترباسا بالمقابل.. أليس كذلك؟!.. لاستخدام فتحة القفل أولا.. ولأنك تعلم أن ولدك اعتاد قفل الباب أثناء وجوده في المكتب.. وسيكون الأمر أفضل لو قفل الباب بالترباس.. حينها ستنتفي أي شبهة لوجود جريمة قتل.. بقي أن أعرف.. من الذي ارتكب الجريمة؟!.. كل الدلائل تشير إليك رغم إنك والده.

لم أتوقع أن ينهار الأب بهذه السرعة.. لم أتوقع أبدا.. إذ ترقرقت الدموع في عينيه دون أن يرد.. لأكمل مباشرة:

- سأستخرج إذنا من النيابة بتفتيش بيتك بالكامل.. وستكون فضيحة لك ولعائلتك.. الأفضل أن تخبرني بما لديك وتعترف.. هل قتلت ولدك؟!.

انهار باكيا وهو يقول بصوت متحشرج:

- نعم.. أنا قتلت ولدي!!!.. قتلت قرة عيني.

يا إلهي.. لم أتوقع هذا الاعتراف المباشر.. أمسكت بذراعه.. وقلت برفق لم أفهم سببه:

- أفضل ما تفعله الآن هو الاعتراف.. فلتخبرني بما لديك.. أعرف أن بعض الحمقى يقتلون بناتهم بسبب قضايا الشرف مع الأسف.. لكن بصراحة لم أسمع عن أحد قتل ولده!!!.

قال بطريقة مؤلمة أشعرتني بالشفقة الحادة تجاهه رغم اعترافه:

- لم أخبر أحدا من أفراد أسرتي بجريمتي.. إنها مسؤوليتي وحدي.. لقد قمت بضخ غاز (الهايدروسيانيك) ([3]) من خلال أنبوب أدخلته عبر فتحة القفل قبل خروجي إلى العمل.. ثم تركت ولدي يستنشقه دون أن يشعر.. إلى أن لقي حتفه.. وحين عدت بعد الظهر.. قمت بتمثيل دور الأب الملتاع على فقد ولده.. كنت أظن أنه من العسير أن يكشف رجال الأدلة الجنائية وجود غاز كهذا في رئة القتيل لأن الأمر لا يتطلب سوى استنشاق كمية قليلة للغاية منه ليتسبب بالوفاة.

ظل يبكي بصمت ويمسح دموعه.. ثم طلب مني أن أخرج معه لمكان ما حيث سأعرف كل شيء هناك على حد قوله.. فخرجت معه بسيارتي إلى الوجهة التي يريدها بعد أن اتصلت بمقر عملي وأخبرتهم بالتفاصيل كاملة كي أحمي نفسي لو كان ينوي إيذائي.. وهكذا كانت السيارة متجهة إلى منطقة (الفروانية).. الصمت يخيم علينا وسط الازدحام المروري وتوجيهات الأب بين الحين والآخر بصوت منكسر.. لنصل أخيرا إلى تلك العمارة الفاخرة.. فترجلنا من السيارة وتبعته إلى الطابق الخامس لندخل شقة مظلمة.. ما إن أضاءها.. حتى رأيت شيئا لم أرَ مثله في حياتي!!!.

ظللت للحظة أنظر حولي غير مصدق.. إنني في شقة واسعة خالية تماما سوى من شيء واحد.. لوحات فنية عديدة بأحجام متقاربة التصقت ببعضها حتى تكاد تغطي جميع الجدران.. وكأنه متحف فني يحوي لوحات رُسمت بدقة عالية.. هناك أيضا صور فوتوغرافية عديدة تختلف

جودتها.. وكأنها التقطت في حُقب زمنية مختلفة.. جميع اللوحات لشخصيات تاريخية مجهولة.. من هي هذه الشخصيات؟!.. أستطيع أن أقول دون تردد إن عدد اللوحات يتجاوز ربما 500 لوحة.. ثم.. هناك تشابه نسبي غير مفهوم بين هذه الشخصيات.. ما معناه؟!.

نظرت إلى الأب دون فهم.. ليقول فجأة:

- هذه هي الحقيقة يا حضرة المحقق.. هؤلاء الذين تراهم في الصور هم جميع أجدادي منذ حوالي 800 عام ولغاية أبي وأعمامي رحمهم الله جميعا.

قلت بحدة:

- تريدني أن أصدق هذا الهراء؟!.. أعترف أن المكان يبدو مريبا.. لكن.. حتى لو صدقتك.. ما علاقة كل هذا أصلا بجريمة القتل؟!!.

رد بعصبية:

- لقد اعترفت لك بأنني قتلت ولدي.. لا يوجد ما أخسره لو أخبرتك بالحقيقة كاملة.. أليس

كذلك؟!.. استمع إلي أرجوك.. لقد بدأت القصة بأكملها منذ حوالي 800 عام حين كان جدي الأكبر عالما يقضي جل وقته في البحث ودراسة الرياضيات.. إذ كان يظن أنها لغة الكون الوحيدة التي لا تخطىء أبدا.. وهذا ما ساعده على ابتكار معادلة غريبة للغاية!!!.

سألته دون فهم:

- تعني معادلة حسابية؟!.

رد مشيرا بإصبعه:

- بالضبط.. معادلة حسابية تمكن المرء من معرفة مصير الأجيال القادمة من الذكور في عائلته!!!.. كانت معادلته هذه تؤكد أن كل حفيد قادم سيرث طباع وملامح وصفات أحد أجداده.. ولإثبات صحة المعادلة.. قام جدي الأكبر بكتابة أهم ملامح حياته وصفاته الشخصية.. ثم استقدم رساما وطلب منه أن يرسمه بدقة.. كان يريد أن يبني بما يشبه قاعدة البيانات لكل نسل أسرتنا من الذكور.. إذ طلب من أبنائه بعد ذلك أن يستقدم كل منهم رسام محترف ليقوم برسمهم جميعا قبل بلوغهم سن العشرين بقليل.. لأن ملامح الإنسان تتغير منذ ولادته إلى أن تثبت إلى حد كبير في هذا العمر.. وقد طلب جدي الأكبر من أبنائه أيضا أن يكتب كل منهم على رقعة جلدية كل عيوبه.. مميزاته.. ميوله.. اهتماماته.. إلخ.. وبكل صدق وأمانة.. مع التعهد ألا يطّلع أحد على تلك المذكرات إلا بعد وفاة صاحبها.. وهكذا توالى هذا الإرث منذ ذلك الحين.. تخيل أن الأمر استمر حوالي 800 عام كما قلت لك.. ليحتفظ الأحفاد بأرشيف كامل عن كل أب وجد من عائلتهم.. رسم دقيق له مع ملخص لأهم سماته وعيوبه.. سواء على رقع جلدية في الأزمان القديمة.. أو على ورق بعد انتشاره في شبه الجزيرة العربية.

قال هذا الكلام وسط صمتي التام.. ليقودني إلى إحدى غرف الشقة.. تبعته لأجد نفسي في غرفة تحوي رقعا جلدية كثيرة وُضعت في إطارات لحفظها من التلف ومن ثم تعليقها على الجدران.. وبعضها لا مكان لها فتم وضعها على الأرض بنظام شديد.. وأمام نظرات ذهولي.. أكمل قائلا:

- هذه مذكرات كل أجدادي ولغاية أبي وأعمامي رحمهم الله جميعا.. ما تراه إرث عائلي لا أحد يعرف عنه شيئا سواي أنا وأشقائي!!!.. وسيعرف عنه أبناؤنا في المستقبل.. هذه الأشياء تساوي

ثروة.. لكن يستحيل أن نبيعها.. لقد امتلكتها عائلتنا طوال قرون.. والأشياء التي تمتلكها فترة طويلة.. تمتلكك هي في النهاية!!!.

قلت بذهن مشتت غير مصدق وجود متحف تاريخي فني كهذا دون علم أحد:

- يا إلهي.. لم أرَ شيئا كهذا في حياتي.. لكني لا أفهم.. ما علاقة المعادلة الحسابية التي اخترعها جدك الأكبر بالرسومات والمذكرات الشخصية لكل الأجيال القادمة من أحفاده؟!.. وما علاقة هذا كله بالجريمة التي ارتكبْتها؟!.

رد باهتمام:

- المعادلة تؤكد أن كل إنسان في العالم يرث صفات أجداده بالكامل حتى يكاد يكون نسخة من ذلك الجد بعيوبه وأمراضه وملامحه ومواهبه.. لهذا جاءت مقولة (التاريخ يعيد نفسه) التي يظن الناس أنها مجرد مثل قديم لا أهمية له.. فقد اكتشف قائل العبارة تلك الحقيقة ([4]).. وجاء جدي ليعيد اكتشافها بمعادلته الحسابية.. ويطبقها على أرض الواقع من خلال ما تراه من رسوم ووثائق.. فالتاريخ يعيد نفسه بالفعل من خلال أحفاد كل عائلة.. لكن عليك أن تعرف أي جد من أجدادك ستحمل سماته!!.. هذا هو الهدف من توثيق تاريخ كل الذكور من عائلتنا.. كي يعرف الأحفاد في المستقبل أي جد سيكون كل منهم نسخة عنه.. ليتجنبوا عيوبه ويستفيدوا من إيجابيته مبكرا.

قالها وهو يشير إلى رقعة على الحائط تحوي معادلة رياضية معقدة جدا.. ثم أكمل بحزن:

- هذه هي المعادلة التي اكتشفها جدي الأكبر.. لكن لا أحد يعرف كيفية قرائتها مع الأسف.. إلا أننا نعرف نتائجها وهذا هو المهم.. هل فهمت الآن يا حضرة الضابط كيف يولد الشخص بمواهب محددة؟!.. أو لماذا يتحول أحد أفراد أسرة مستقيمة إلى مجرم دون سبب واضح كما حدث مع ولدي الذي قتلته بنفسي؟!.. أو أن يولد نابغة وسط أشقاء متوسطي الذكاء؟!.. يظنها الناس طفرة.. لكنها ليست كذلك.. إنه فقط نسخة من أحد أجداده.. بكل صفاته وعيوبه ومميزاته.. ألم تسأل نفسك لماذا تحب اسما ما وتكره اسما آخر بالمقابل؟!.. أو لماذا تحب نوعا من الفاكهة وتكره نوعا آخر؟!.. لأنك ورثت ذلك من أحد أجدادك لكنك لا تعلم.. فكل من تعرفه هو والدك وجدك ربما.. وتجهل سمات وأوصاف من يسبقهم من أجداد.. أما عائلتنا فتمتلك معلومات كاملة عن كل جد من أجدادها.. هل فهمتني الآن؟!.. هذه هي الحقيقة مهما بدت لك غريبة.. بل أن في كل مرة ينجب أحد أفراد عائلتنا ولدا ويصل إلى سن البلوغ.. نهرع إلى هذه الشقة لنرى أي جد من أجداده يشبهه.. ونبدأ بعدها بقراءة سيرة الجد كما كتبها في مذكراته.. فنعرف على ضوئها كيف سيكون هذا الحفيد.. آملين أن نصحح له مسار حياته مبكرا.. فيتجنب الأخطاء التي ارتكبها ذلك الجد.. ويستفيد من إيجابياته ويكتشف مواهبه الدفينة.. فهناك الكثير من المواهب التي تموت مبكرا لأن صاحبها يجهل امتلاكها أصلا.

سألته مبهورا:

- لكن هناك من الذكور من يحمل ملامح والدته.. هذا بحد ذاته يقتلع الفكرة من جذورها.

رد بلهجة العليم بالأمر وكأنه توقع هذا السؤال:

- أبدا.. ربما سيرث العينان.. أو الأنف.. أو حتى بعض ملامحها.. لكن وجهه الكامل سيكون أقرب إلى أحد أجداده.. التأثير الوراثي للأسلاف من الذكور أقوى بكثير.. هذا ما توصلت إليه أبحاث

جدي الأكبر.. وهذا ما أثبته من خلال تلك المعادلة.. لهذا لا تجدنا نملك أرشيفا لأسلاف عائلتنا من الإناث.

سكت دون أن أرد.. ليكمل قائلا:

- إذا فهمت كل ما قلته لك.. فستفهم أيضا سبب الجريمة التي ارتكبتها.. فقد ورث ولدي صفات وأطباع أحد أجدادي الذي كان مجرما وسايكوباث حقيقي مع الأسف.. بل وأخبرت ولدي بهذا محذرا.. لكنه لم يستمع إلي مع الأسف رغم كل الأدلة التي سردتها له عن تشابه صفاته مع ذلك الجد.. فطيش المراهقين وحماقاتهم جعله يقدم على كل ما كنت أحذره منه.. صدقني لو أعددت لك المشاكل التي سببها ولدي ستفهم.. لذا.. وبعد أن يأست تماما.. وبعد نقاشات عديدة مع أشقائي.. قررت أن أقتله.. أقتل فلذّة كبدي!!.. أعلم أن هذا أمر عسير للغاية ويكاد لا يصدق.. لكني قدمت خدمة للمجتمع.. ولعائلتي.. وربما خدمة لولدي نفسه قبل أن يرتكب المزيد من الحماقات ويقضي حياته في السجن في أفضل الظروف.

قلت بأسف:

- لكنك تصرفت كمجرم محترف وارتكبت جريمتك بذكاء.. أنت الآخر مجرم بالفطرة كما يبدو.

هز رأسه نفيا وهو يقول:

- لقد تطلب الأمر شهورا من التفكير والتخطيط لارتكاب جريمة لا تثير شبهات رجال الأمن.. إلى أن توصلت لهذه الخطة الغريبة.. كنت أبكي بحرقة وأنا أدخل الأنبوب في فتحة القفل وأضخ غاز (البروسيك) الذي تسبب بموت ولدي.. كنت آمل وأتوقع أن تتجه القضية إلى اعتبارها حالة وفاة عادية.. لم أتوقع أبدا أنك قرأت قصة جريمة تمت بهذه الطريقة وأن تكشف أمري في النهاية.

ساد المكان صمتا طويلا للحظات.. أحاول استيعاب ما قاله.. فوجدت عقلي يرفض القصة

بأكملها.. كحالنا جميعا حين نستمع لقصة خارجة عن المألوف.. لأقول بحنق:

- تقول إنك قتلت ولدك لأنه حمل سمات أحد أجدادك الذي كان مجرما.. أليس كذلك؟!.. حسنا.. بغض النظر عن كل ما قلته.. فأنت تتحدث هنا عن علم الغيب!!.. من أعطاك الحق لتحكم على ابنك بأنه سيغدو مجرما حين يكبر؟!.. ربما سيتغير.. ربما سيتوب!!.. لا يمكنك أن....

قاطعني بألم:

- لا نستطيع أن نمنع الشر من ارتكاب الشر!!!.. هذه حقيقة أدركتها بعد أن تملكني اليأس.. لا يمكن لآلة تصوير الأوراق أن تنسخ لك صورة لورقة جديدة.. هل تفهم؟!.. جميعنا نتشابه مع أحد أجدادنا بالسلوك والشكل.. أنظر إلى هذا الرسم.. إنه لجدي السابع والثمانين.. هل ترى الشبه الواضح بيني وبينه؟!.. إنني نسخة منه.. وقد ورثت منه كل شيء تقريبا.. ليس شكله فحسب.. بل حتى صفاته.. ولحسن الحظ أنه كان إنسانا سويا.. أما ولدي فهو نسخة من جدي الثاني عشر.. إنه مجرم بالفعل بعد كل الأفعال التي ارتكبها وذكرتها لك سابقا.. صدقني لو تركته يكبر.. كان سيصبح أسوأ من السفاح المخيف (دييجو ألفيس) ([5]) إذا كنت قد سمعت عنه.. ثم هل تظن أنني كنت سأقدم على قتل أحد أبنائي لو لم أكن متأكدا من هذه المعادلة التي لم تخطىء أبدا؟!.. هذه المعادلة تقول بطريقة أو بأخرى إننا جميعنا أشباح!!!.. فجميعنا نحمل

بداخلنا من جاؤوا ورحلوا قبلنا.

لم أجد ما أقوله أمام تلك القصة التي تصطدم بعقلي اصطداما وكأنها ثور هائج يحطّم حاجز المعقول!!!.... فأخرجت هاتفي النقال لأطلب قوة أمنية للحضور فورا والقبض على الأب.. لكني فوجئت به يقول مستسلما منكسرا:

- لا داعي لكل هذا.. سأذهب معك بنفسي إلى المخفر.. لكن سأنكر كل ما يتعلق بهذه الشقة كوني أخذتك إلى هنا بصورة ودية وليس بأمر من النيابة.. سأعترف فقط أنني قتلت ولدي.

حقا أنها أغرب قضية مرت علي.. كنت أظن أن الأمر لن يتجاوز جريمة قتل نُفّذت بطريقة عبقرية.. وأن يقوم القاتل في النهاية بتمثيل الجريمة للتأكد من كل ما قاله ونغلق بعدها القضية إلى الأبد ([6]).. لكني وجدت نفسي فجأة أدخل دهاليز تاريخية مذهلة.

هذه هي قصتي.. أعتقد أنكم تتفقون معي على أنها قصة يستحيل تصنيفها تحت أي بند من شدة غرابتها.. لكن القضية -على الأرجح- لن تخرج عن كونها مجرد جريمة قتل ارتكبها أب بحق ولده بسبب أفعاله الإجرامية.. خاصة بعد أن قرر الأب عدم التطرق أبدا أثناء التحقيق لإرث عائلته الغريب.. والرقعة الجلدية التي تحوي أرقاما ورموزا حسابية غير مفهومة تؤكد اكتشاف جده الأكبر لتلك المعادلة!!.

آلزهايمر!!

- لن أقبل بذلك أبدا.. لا يمكن أن ينتهي الأمر بهذه الصورة!!!.

قلتها بغضب لزوجتي التي ظلت تحاول تهدئتي وهي ترد مغمغمة:

- سنجد حلا يا حبيبي.. سنجد حلا.

ضربت منضدة الطعام بقبضتي بقوة من شدة الغضب وأنا أقول:

- كيف؟!.. لا يمكن أن يكون هناك حل لمشكلة كهذه.. لقد ارتكب أبي رحمه الله خطأ فادحا حين تزوج تلك اللعينة.. لا أصدق أنها ستحصل على جزء من ورثه.. إنها حتى ليست بكامل قواها العقلية.. ماذا ستفعل بهذا المبلغ؟!!.

ردت زوجتي بحسرة:

- هل نستطيع فعل شيء؟!.. أن نحجر على زوجة أبيك مثلا؟!.

قلت بألم ولوعة:

- الحجر عليها يتطلب اللجوء إلى القضاء.. وأمر كهذا سيستغرق مدة طويلة قد تصل لسنوات.. وحتى لو كسبت القضية.. فلن أحصل على حصتها من الورث.. هذا نصيبها في النهاية.. كل ما سيحدث هو توكيل شخص ما ليكون وصيا على أموالها.. ولا أعرف من سيكون هذا الشخص أصلا.. ربما أحد أقاربها.. كما ترين.. متاهات كثيرة لا أريد دخولها.

سألتني باهتمام:

- كيف فقدت عقلها؟!.. ومتى؟!.. المعذرة.. فأنت لا تتحدث عن زوجة أبيك كثيرا.

قلت بملل:

- قبل وفاة أبي بحوالي سنتين.. حين بدأت تظهر عليها أعراض (آلزهايمر).. إنها في المرحلة الأولى منه على ما أظن.. فقد بدأت تنسى الكثير من الأمور البديهية المتعلقة بحياتها ([7]).. لكن أبي أحبها كثيرا ولم يكن ليتخلى عنها رغم ذلك.. والآن سأجني ثمار الخطأ الذي ارتكبه.. ستحصل تلك المأفونة على مبلغ هائل من ثروته.

ردت زوجتي مواسية:

- ستحصل أنت أيضا على نصيبك من الورث.. سيكون هو المبلغ الأكبر.

قلت بعصبية:

- يفترض أن يكون الورث بأكمله من حقي أنا وحدي.. إنني وريث أبي الوحيد.

سكتت زوجتي دون أن تعلق.. وراحت تتناول طعامها بهدوء لتتركني وسط سخطي وغضبي.. نعم.. إنني محق في كل ما أقوله.. لقد تزوج أبي هذه اللعينة بعد وفاة والدتي بسنوات قليلة رغم اعتراضي الشديد وقتها.. ورغم محاولاته المستمرة لإقناعي بعدم وجود أي غدر أو خيانة لوالدتي في ذلك.. وإن هذا حقه الشرعي.. ثم تحولت نقاشاتنا مع مرور الأيام إلى شيء من الحدة والعصبية من طرفه حين تأكد له أنني لن أقتنع أبدا.. ليحسم النقاش حين أخبرني ذات يوم

بصرامة إنه سيفعل ما يريد ولن ينتظر موافقتي!!.. فتزوج رغما عن أنفي.. لكني لم أتقبل الأمر أبدا.. إذ كرهت زوجته اللعينة هذه طوال فترة زواجهما التي استمرت 14 عاما قبل بدء ظهور أعراض (آلزهايمر) عليها.. لا أنكر إن هذا أسعدني كثيرا حينها.. فبدا وكأنه انتقام السماء.. حتى إنني بدأت أترقب تفاقم المرض على أمل وفاتها في النهاية.. لكن القدر أخذ أبي قبلها منذ أسابيع قليلة مع الأسف بسبب أمراض القلب التي كان يعاني منها بفعل عامل السن.

المهم أنني خرجت ليلتها متجها إلى مقهى (ستار بكس) في منطقة (النزهة) للقاء أحد المحامين -وهو بالمناسبة صديق مقرب جدا لي- حيث جلست أشكوه ما حدث.. وإنني الآن على وشك خسارة جزء ليس بالقليل من ثروة أبي.. فظل صديقي يستمع إلي دون أن يرد.. ليقول بعدها مغمغما بأسف:

- من الناحية القانونية.. الأمل الوحيد بالنسبة لك أن تموت زوجة أبيك منتحرة.. كون المنتحر يخسر نصيبه من الورث.. أما لو ماتت ميتة طبيعية أو تعرضت للقتل.. فسيتجه نصيبها إلى ورَثَتِها.. المعذرة.. فرصتك معدومة تقريبا.

أطرقت برأسي وأنا أفكر بأسف.. يقول إن الطريقة الوحيدة للتخلص منها أن تموت منتحرة.. لكن كيف؟!.. كيف أقنعها بالانتحار؟!.. هناك دوما غريزة البقاء التي تجعل الإنسان يرغب بالحياة.. دعكم من أن الإصابة ب. (آلزهايمر) تُفقد المرء الأهلية أصلا.. أي أنها حتى لو انتحرت.. فسيحكم القاضي لورثتها بحقهم الكامل كونها لم تكن مسؤولة عن تصرفاتها.. و.. مهلا.. مهلا.. برقت عيناي فجأة حين تذكرت حقيقة بالغة الأهمية لم أنتبه لها سوى الآن!!.. لقد كان أبي رحمه الله شديد التكتم بطبيعته.. ولا يتحدث أبدا عن عائلته لأي شخص.. فأخفى خبر إصابة زوجته بالمرض كما قال بنفسه ذات مرة.. خاصة أن علاقة زوجته بأقاربها تكاد تكون معدومة.. بل ولا أعتقد أن أحدا زارها أصلا منذ سنوات.. حتى إنها لم تتواجد في فترة عزاء أبي ولم تلتقِ بالمعزين.. حيث حرصْت على بقائها في غرفتها وأخبرت الجميع حينها أنها تعرضت لوعكة صحية بسيطة أبقتها في فراشها.. فعلت هذا تجنبا لأي تصرفات جنونية قد ترتكبها وتسبب لنا الحرج أمام الناس.. هل هناك طريقة لأستفيد من هذا السر؟!.

خرجت من المقهى عائدا إلى البيت وأنا أفكر طوال الوقت بمخرج من هذا المأزق.. أتذكر أنني قضيت الليلة بأكملها متقلبا في فراشي دون أن يطرف لي جفن.. أفكر طوال الوقت بما يجب فعله.. قبل أن تطرأ في ذهني فكرة غريبة للغاية.. لماذا لا أدفع زوجة أبي إلى الانتحار؟!.. سيظن الجميع أنها انتحرت حزنا على أبي وهي بكامل قواها العقلية.. الفكرة تكبر في رأسي أمام هذه الحقائق التي لم أنتبه لها سوى الآن.. يجب أن أدفعها لتقتل نفسها دون وجود أي شبهة جنائية.. سيتطلب الأمر تخطيطا دون شك!!.

قضيت الأيام التالية أتنقل بين المقاهي.. فأجلس وأفكر وأكتب على أوراق لأمزقها وأكتب على غيرها دون توقف.. خطوط وكلمات.. إلخ.. أحاول أن أجد طريقة لتنفيذ خطتي.. كل هذا دون أن أخبر زوجتي بشيء كونها سترفض الأمر برمته وتتحدث عن الأخلاقيات والمثل السخيفة.. المهم أن في النهاية.. ارتسمت في ذهني خطة طريفة وعبقرية بنفس الوقت!!!.

فالوحيد في العالم الذي يملك تأثيرا على زوجة أبي ويستطيع دفعها لفعل أي شيء هو أبي نفسه.. إنها تعشقه بجنون ولم تكن ترفض له طلبا.. سأجعل أبي يتواصل معها.. نعم.. إنني أتحدث هنا عن تحضير الأرواح!!!.. لن يكون تحضير الأرواح حقيقيا بالطبع.. بل سأقوم

بخداعها.. وهو أمر ليس بالعسير لما يعانيه عقلها.. إذ سأدّعي أن أبي يزورني في أحلامه ويطلب مني تحضير روحه ليتحدث إلى زوجته.

انتابني الحماس وأنا أزن تلك الخطة في رأسي وأرسم تفاصيلها لأجد أنها ناجحة جدا رغم بساطتها.. سآتِ بشخص أدفع له مبلغا محترما من المال.. ثم أقوم بعمل ماكياج متقن له ليبدو شبيها بأبي.. وأجعله يطلب منها أن تنتحر لتلحق به في العالم الآخر كونه يفتقدها بشدة!!!.. المشكلة أن زوجة أبي قد تتساءل -رغم ارتباك عقلها المريض- عن السبب الذي يجعل روح أبي تتواصل معي وليس معها مباشرة!!!.

أفكر بهذه النقطة بشيء من التوتر.. قبل أن أبتسم بارتياح.. سأخبرها أن عملية تحضير الأرواح معقدة وتتطلب القيام بطقوس كثيرة قد لا يستوعبها عقلها.. لهذا اختارني أبي لأوصل لها الرسالة.. إنه حل رائع.. لكن يجب أن أمارس الخدعة في الليل.. كي أمنح خطتي أكبر فرصة ممكنة للنجاح.. لأن زوجة أبي تعاني من (متلازمة الغروب) ([8]).. سيكون خداعها أسهل بكثير ليلا.. هذا رائع.. رائع.. الابتسامة على شفتي تتسع حتى ملأت وجهي!!!.

وضعت خطتي قيد التنفيذ مباشرة.. فبعد أيام قليلة من البحث المستمر دون توقف.. عثرت على شخص يشبه أبي إلى حد معقول مع بعض الإضافات والماكياج.. وأقنعته بلعب هذا الدور بعد أن وعدته بالحصول على 10 آلاف دينار كاملة لو نجحت الخطة.. مع تسجيل اعتراف صوتي له بأنه يساعدني بارتكاب الجريمة بكامل إرادته مقابل مبلغا من المال.. إنها خطوة احترازية كي لا يقوم بالإبلاغ عني فيما بعد.. ثم قمت بدفع مبلغ آخر لأحد العاملين بالإنتاج الفني ليضع مساحيق التجميل على وجه هذا الشخص حسب توجيهاتي.. فبدا في النهاية شبيها بأبي إلى درجة كبيرة.. خاصة مع الدخان الأبيض الذي سيخرج من حوله بفعل جهاز صغير يستخدم عادة في الحفلات والأفراح.. ذلك الدخان سيخفي ملامحه قليلا.. فالماكياج مهما كان متقنا.. من الممكن أن ينكشف.

أتذكر أنني اتصلت يومها بزوجة أبي لأخبرها -متصنعا الذهول- إن أبي يزورني باستمرار في أحلامي ويرغب بالتواصل معها.. بالطبع لم يكن شرح الأمر وإقناعها سهلا.. لكنها اقتنعت في النهاية وفرِحت كثيرا بعد أن صدقت أنها ستلتقي بأبي فعليا.. وقد أخبرتها أنني سأكون معها طوال الوقت وسأقوم بعملية تحضير الأرواح المزعومة هذه كاملة.

قمت بزيارتها مساء اليوم التالي.. وطلبت من ممرضتها التي تقيم معها وتهتم لأمرها أن تتركنا وحدنا وأن تستعد للرحيل خلال الأيام القليلة القادمة كوني سأتعاقد مع ممرضة أخرى دون أن أذكر لها الأسباب.. وقد أبلغت خادمتها أيضا أنني سأنهي عقد عملها لترحل إلى بلدها.. مع الوعد بمبلغ لا بأس به لكلاتهما تعويضا عن ذلك.. كنت حريصا للغاية أن أبعد عن زوجة أبي كل من يعلمون بأمر إصابتها ب. (آلزهايمر).. ليبقى مرضها سرا لا تصل إليه تحقيقات الشرطة فيما بعد.. فلا يتم اعتبارها غير مسؤولة عن تصرفاتها وينتقل نصيبها من الورث إلى ورثتها كما علمتم.

كنت قد اتفقت ليلتها مع الرجل الذي سيقوم بدور أبي على التسلل إلى البيت بعد أن أعطيته نسخة من المفتاح وطلبت منه الاختباء خلف الستارة في الديوانية الخارجية حيث سأقوم بعملية تحضير الأرواح هناك.. لماذا ديوانية البيت الخارجية؟!.. سيكون الأمر أسهل بكثير

للتسلل والاختباء خلف الستارة ولزرع جهاز بث الدخان هناك.. ومن ثم إزالة كل هذا فيما بعد.. وقد أقنعت زوجة أبي بخطر العبث في الأرواح بغرفتها الخاصة.. كوننا لسنا متأكدين إن كانت هناك عواقب لما سنفعله على حد زعمي.

وهكذا جلسنا في الديوانية بانتظار استدعائي لروح أبي.. كنت أشعر بتوتر وأنا أختلس النظر إلى الستارة التي بدت منتفخة نسبيا وبشكل غير ملحوظ بما يشي باختباء شخص خلفها.. آملا أن تؤدي أعراض (متلازمة الغروب) عملها لمزيدا من الإرباك.. أنهض لإطفاء الإنارة.. فيعم الظلام في الديوانية سوى من بعض الشموع التي منحت المكان جوا روحانيا متعمدا كي أصنع أكبر تأثير ممكن.. ثم.. أمسكت بشمعة حمراء ورحت أنظر إلى مرآة كبيرة موجودة على الجدار.. وبدأت بترديد تعاويذ مختلفة عثرت عليها على شبكة الإنترنت.. أفعل كل هذا وسط نظرات زوجة أبي الخائفة.. لأتجه بعدها إلى منتصف الغرفة وأسكب الشمع الساخن على طبق صغير وضعته على منضدة صغيرة؟!.. لماذا؟!.. من أجل الهراء بالطبع!!!.. ولأبدو مقنعا لأبعد الحدود.. زوجة أبي تنظر مبهورة إلى الدخان الذي بدأ يتصاعد من تحت الستارة.. ثم.. يظهر الرجل بالماكياج كاملا.. حتى إنني -بصراحة- شعرت بشيء من الخوف.. خاصة مع تلك الأجواء الشيطانية.

يتحدث الرجل بصوت هامس كي لا يثير صوته المختلف شكوكها:

- عزيزتي.. لقد اشتقت إليك كثيرا!!!.

نظرَت إليه بانبهار.. ثم انهارت باكية وحاولت النهوض بصعوبة بفعل عامل السن لتعانق أبي على حد قولها.. لكني أمسكتها من يدها وطلبت منها أن تبقى في مكانها وألا تُغضب الأرواح.. ليقول أبي المزيف:

- عزيزتي.. إنني أفتقدك بشدة.. لماذا تريدين الحياة في هذا العالم البائس؟ !!.. تعالي إلي في عالم الموتى.. إنه عالم مثالي رائع جميل.. ستكونين بخير معي.. صدقيني.. تخلصي من الحياة التي لم تمنحك سوى الألم والأمراض.. و....

كلام طويل عن رغبته في أن يجتمع بها بعد الموت.. ومحاولات مستمرة لإقناعها بالانتحار.. مما جعلني أتصنع البكاء وأحتضن زوجة أبي محاولا التأثير عليها وللفت انتباهها.. كي أمنح الرجل الفرصة ليعود ويختبىء خلف الستارة دون أن تراه.. أقول باستغراب مصطنع:

- يا إلهي.. لم أظن يوما أن أمرا كهذا سيحدث.. كم أشعر بالذنب لأنني كنت أكرهك.. لا أصدق أن أبي يحبك إلى هذه الدرجة.. أرجوك سامحيني!!!.

لم ترد.. بل ظلت تبكي بحرارة وهي تردد دون توقف:

- يا لزوجي الحبيب.. يا لزوجي الحبيب.. كم أفتقدك.. كم أشتاق إليك.

رائع.. يبدو أن الخطة نجحت تماما.. بقي الآن الأهم.. أن تقوم بقتل نفسها فحسب.. متى ستفعل هذا؟!.. آمل ألا تتأخر.. أردد ذلك بيني وبين نفسي وأنا أقودها إلى غرفتها مانحا الفرصة لأبي المزيف كي يخرج من مكانه ويهرب دون أن يلفت انتباه أحد.. لقد أدى دوره على أكمل وجه.

لم يطل انتظاري بعد تلك الحادثة.. فبعد أقل من أسبوع.. فوجئت باتصال هاتفي من زوجة أبي وهي تقول باكية:

- أريد أن ألتقي بزوجي مرة أخرى.. أرجوك.. أرجوك يا ولدي.. لا توجد شمس في العالم تستحق الاستيقاظ من أجلها بعد رحيل زوجي الحبيب.

رائع.. لا بأس.. سأكرر الخدعة ليزيد اقتناعها.. لكن هذا سيتطلب تخطيطا جديدا لم يكن في الحسبان.. فاتصلت بذلك الرجل مرة أخرى وطلبت منه التواصل مع فني الماكياج لتجهيز نفسه ومن ثم محاولة إقناع زوجة أبي مرة أخرى وترسيخ فكرة انتحارها.. مع الوعد بمكافأة مالية توازي ما دفعته له في المرة السابقة.

وبالفعل.. ففي الليلة التالية.. تكرر نفس السيناريو في ديوانية البيت الخارجية وبكل التفاصيل.. لينتهي كل شيء ونعود إلى غرفة زوجة أبي.. يدور بيننا حديث طويل بدا مضحكا بالنسبة لي.. تقول بحماس بالغ إنها مقتنعة الآن بضرورة موتها للحاق بزوجها.. وإن الحياة لا معنى لها بدونه.. رائع.. رائع.. يجب أن ترحل الخادمة والممرضة في أقرب وقت قبل أن تقتل تلك اللعينة نفسها وتريحني من وجودها.. مهلا.. ماذا يحدث؟!.. لماذا أشعر بالدوار؟!.. لماذا أشعر بالغثيان؟!.. حبيبات العرق تنبت على جبيني بسرعة.. نبضات قلبي تزداد.. ثم.. أراها تنظر إلي بفرح وهي تقول:

- إنه مفعول السم الذي طلبت من الخادمة وضعه في القهوة التي تشربها يا ولدي.. كنت أنتظر فقط تحضير روح والدك مرة أخرى لأطمئن نفسي إنني أفعل الشيء الصحيح.. لقد ظننت أن والدك سيكون أسعد في عالم الموتى لو جئنا إليه معا!!!!.. أن يكون مع زوجته.. وولده الوحيد.. أليس هذا أفضل؟!.. ما رأيك؟!!.

قالت كلامها بسعادة بالغة وهي تنظر إلي بحنان وترتشف قهوتها المسمومة.. ثم تكمل وهي تنظر إلى السقف باشتياق:

- زوجي الحبيب.. سنكون معا.. سيلتم شملنا أخيرا.. أنا وولدك.. حقا إن أغرب اشتياق المرء.. هو اشتياقه لنفسه في الماضي.. وأنا أشتاق لنفسي معك!!.

لم أجد الوقت للشعور بالصدمة.. كان الألم أقوى من أي مشاعر أخرى.. يا إلهي.. لم أتوقع أبدا أن تتصرف بهذا الذكاء المريض!!!.. ذكاء مجنون!!!.. لا أصدق أنها قتلتني بهذه البساطة

ظنا منها أنها تحقق أمنية أبي الميت!!!.. كيف حصلت على السم؟!.. ربما من الممرضة.. هذا لا يهم الآن.. فأنا أسقط أرضا.. وألفظ أنفاسي الأخيرة وسط ذهولي الشديد.. في حين أرى زوجة أبي وقد بدأت تظهر عليها أعراض السم كذلك.. الفنجان يسقط من يدها.. جسدها يرتعش.. وهو آخر ما رأيته.. إذ ثقلت جفوني كثيرا.. فأغلقتهما رغما عني.. يبدو أن رحيلي عن العالم بات قريبا جدا.. لقد طمعت بثروة أبي كاملة.. وظننت أن إصابة زوجته ب(آلزهايمر) سلاحا سأستخدمه لصالحي.. لكنها استخدمته ضدي ظنا منها أنها تحقق الأمنية.. أمنية أبي المزيفة!!!.

الوصول للقاع!!

استيقظت فجأة من نومي العميق وأنا أشهق وأعب الهواء في جوفي دون سبب.. لماذا أشعر بالتعب؟!.. كيف يمكن أن تستيقظ من النوم متعبا؟!.. ربما لأنني بذلت جهدا هائلا للخروج على قيد الحياة من كوابيسي!!.. ألتقط نفسا عميقا وأنظر حولي بذعر.. ما هذا المكان؟!.. أين أنا بالضبط؟!.. إنها غرفة نوم أنيقة إلى حد ما.. لكنها ليست غرفتي.. إنني لست في بيتي!!.. بل في مكان أجهله تماما.

تطلب الأمر ثوان قليلة لأستوعب الصدمة.. ثم.. ألتفت لأرى زوجي نائما.. أهزه بقوة ليخبرني أين نحن بالضبط وكيف انتهى بنا الأمر في هذا المكان!!.. فيستيقظ بكسل ويلتفت نحوي وهو يحك عينيه ويسألني عن سبب إيقاظي له.. لأتعرض لصدمة جديدة جعلتني أنهض من الفراش بهلع وألتصق بالحائط لا شعوريا!!!.. يا إلهي.. هذا الرجل.. إنه ليس زوجي!!!.. لم أنتبه لذلك في البداية بسبب الظلام الذي يطغى على الغرفة سوى الإضاءة الخافته التي تأتي من خلف الستارة كوننا في فترة قيلولة.. ولأنه كان موليا جسده للناحية الأخرى.

أبحث عن أي شيء أتستر به فوق ثياب النوم الخفيفة التي أرتديها.. فوجدت منشفة ملقاة بإهمال على كرسي صغير في الغرفة.. أخذت المنشفة بسرعة ووضعتها حول كتفي.. ثم صرخت بالرجل:

- من أنت بالضبط.. كيف جئت بي إلى هنا؟!.

طار كل أثر للنوم من عينيه بدوره وهو يقول مصدوما:

- حبيبتي.. إنه أنا.. زوجك.. ماذا جرى لك؟!.

صرخت وأنا ألتفت حولي دون توقف:

- أنت لست زوجي.. لماذا جئت بي إلى هنا؟!.. كيف قمت باختطافي وإجباري على النوم بجانبك؟!.

رد بألم:

- (شيماء).. أنا (سليمان) زوجك.. يبدو أن الأحلام والكوابيس التي تعيشينها باستمرار تمكنت من عقلك وجعلتك تخلطين الخيال بالواقع يا حبيبتي.

قلت بعصبية:

- أيها اللعين.. أنا لست (شيماء).. لست (شيماء).. أنا (دانة).. هذا اسمي.. وأنت لست (سليمان).. كيف أخذت مكان زوجي.. أين هاتفي؟!.. سأتصل بأبي.

أقولها وأنا أبحث عن هاتفي النقال دون أن أعثر عليه.. فيقول الرجل بأسف بدا لي مصطنعا:

- والدك توفي منذ سنوات يا عزيزتي.. هل نسيت؟!.

كان هذا يفوق احتمالي.. فقلت صارخة وأنا أبحث عن هاتفي ولا أجده:

- أبي لم يمت.. إنه بخير.. توقف عن التعامل معي على أنني مجنونة.. أنا أعرف نفسي جيدا..

لكني لا أعرفك.. ولا أعرف أي لعبة حقيرة تمارسها.

لم يلتفت إلي.. بل أخرج هاتفه من أحد الأدراج.. وراح يطلب رقما ما.. ثم.. أسمعه يتحدث أمام عيني المذعورتين:

- دكتور.. المعذرة على الاتصال.. مشكلة زوجتي لم تنتهِ بعد!!!.. لقد اختلط عليها الواقع بكوابيسها ولم تعد تميز بينهما.. فقد أيقظتني للتو وهي في حالة هلع.. إنها تصرخ مدعية أن اسمها (دانة) وإنني لست زوجها.. أرجوك يا دكتور.. لقد تعبت.. إنها تسبب جوا من التوتر بات يخيم على حياتنا.. كوابيسها أصبحت لا تتوقف.

قاطعته وأنا أصرخ بجنون:

- نعم أيها اللعين.. الكابوس لم ينتهِ.. الكابوس أمامي الآن.. أنا أدرك عقلي وأعرف نفسي جيدا.. أنت لست زوجي.. أنا لا أعرفك.. وهذا الطبيب النفسي متواطىء معك.. إنه......

تخاذلت فجأة.. وسكت تماما حين ظهر بريق صغير في عقلي.. أو هذا ما بدا لي عندما تذكرت أنني أعاني بالفعل من اختلاط الواقع مع أحلامي.. فأنا لا أعلم إن كان ما أعيشه الآن حلم أم حقيقة.. المنطق يقول إنني أحلم.. لكن مشاعري ووعيي يؤكدان لي أنني مستيقظة!!!.. ثم.. حسمت أمري وذهبت إلى الدولاب لأستبدل ثيابي وأخرج من هنا أمام نظرات الرجل التي تلاحقني.. مهلا.. الدولاب مغلق.. والمفتاح ليس موجودا.. أذهب إلى باب الغرفة لأجده مقفلا أيضا.. أين المفتاح؟!.. هل هذا يعني إنني مسجونة هنا؟!.. أتوسل للرجل أن يتركني أذهب في حال سبيلي وهو ما يزال ممسكا بسماعة الهاتف ويستمع إلى الدكتور كما يبدو.. لينهي المكالمة فجأة ويقول بهدوء:

- حسنا.. حسنا.. سأفتح لك الباب.. لكن يجب أن تذهبي معي إلى عيادة الدكتور بعد قليل.. ولو لم تقتنعِ بكلامه فسأتركك لحال سبيلك.. أعدك.

نظرت إليه باضطراب وأنا أقول:

- أقتنع بماذا؟!.. بأنني أحلم؟!.. هل تمزح؟!.

رد بحزن:

- أنت مستيقظة الآن بكل تأكيد يا عزيزتي.. لكن اختلاط أحلامك وكوابيسك بالواقع سبب لك نوعا من الارتباك!!!.. أنا لا أنوي إيذاءك.. إنني زوجك.. صدقيني.. فقط تعالي معي إلى العيادة وستعثرين هناك على إجابات لكل تساؤلاتك.

ثم أشار إلى الساعة الموجودة على الحائط وهو يقول:

- الدكتور سيكون في عيادته في الخامسة مساء.. أي بعد أقل من ساعة.. سنزوره معا.. ماذا تقولين؟!.

نظرت إليه بشك.. ثم وجدت نفسي أهدأ أمام تطميناته.. لأجلس على الأرض في ركن الغرفة.. وكأنني أبحث عن الاحتواء لأشعر بالأمان.. الرجل لا يزال ينظر إلي بحنان وألم.. يحاول أن يتحدث بأكثر من موضوع ليدفعني إلى الكلام قتلا للوقت.. لكني عاجزة عن الرد.. الرعب والقلق والصداع.. و.. مر الوقت أخيرا.. لينهض الرجل من مكانه ويطلب مني ارتداء ثيابي.. كيف.. كيف عاد مفتاح الدولاب إلى القفل؟!.. أكاد أقسم إنه لم يكن موجودا.. يبدو أنني أعاني من مشكلة..

وأن هذا الرجل هو زوجي بالفعل.. هناك شعور يسيطر علي بأنني أقضي أكثر أوقاتي في الأحلام.. خاصة حين أكون مستيقظة!!.. جملة متناقضة غير مفهومة لكنها تلخص حالتي جيدا.. لأني أنا نفسي لا أفهم ما يحدث لي.

نهضت متجهة إلى باب الدولاب وفتحته بسرعة.. لا أجد أي ثياب مألوفة.. إنها ثياب نسائية نعم.. لكنها ليست ثيابي.. ارتديت ما وجدته مناسبا في النهاية.. وخرجت مع الرجل دون أن أغتسل.. هذا ترف لا أملك وقتا له الآن.. الشمس تصطدم بعيني وتسبب لي إزعاجا.. أراقب الشوارع المزدحمة من حولي وأختلس النظر إلى الرجل وهو يقود سيارته بصمت متجها إلى عيادة الدكتور.. لقد بدأت أظن أنه زوجي فعليا رغم إن صورة زوجي الموجودة في ذاكرتي مختلفة تماما!!!.. حتى السيارة لا أظن أنني ركبتها من قبل!!.. تدور تلك التساؤلات في ذهني إلى أن وصلنا إلى مكان العيادة في منطقة (السالمية).

ها نحن الآن في العيادة.. أرقد على السرير وقد حقنني الطبيب للتو بشيء ما جعلني أسترخي تماما.. زوجي يقف بالقرب مني ويتحدث للطبيب بقلق عن مشكلتي.. هذا غريب.. أشعر أن الحقنة أعادتني إلى الواقع.. إنني أستعيد عافيتي تدريجيا.. لقد تذكرت الآن.. بالفعل اسمي (شيماء) وليس (دانة)!!.. أغلق عيني بارتياح شاعرة أن ذكرياتي تنتظم في عقلي.. ثم أفتحهما مرة أخرى ببطء متوقعة أن كل شيء قد انتهى.. قبل أن أفاجأ بصدمة جديدة مروعة.. الطبيب النفسي.. أنا لا أجده.. بل أجد بالمقابل زوجي.. زوجي هو الطبيب النفسي.. إنه يرتدي روب الأطباء ويجلس مستمعا إلي!!!.

عندها جن جنوني.. فخرجت من غرفة الطبيب متجهة إلى الاستراحة.. وأخبرت الممرضة بانفعال أن الرجل الذي جاء برفقتي يتقمص شخصية الطبيب الآن.. لكن الممرضة ابتسمت بتعاطف لم أفهمه.. وأمسكت بيدي لتقودني بنفسها إلى غرفة الطبيب مرة أخرى.. تفتح الباب لأجد الغرفة خالية.. ثم تقول بشيء من التعاطف: - أنظري بنفسك.. الطبيب لم يصل بعد يا عزيزتي!!!.

يا إلهي.. هل يعقل أنني غفوت مرة أخرى وحلمت أثناء انتظاري للطبيب؟!.. يبدو أن هذا ما حدث.. قطع هذه الأحداث وصول الطبيب فعليا.. إنه ينظر إلي ببرود وكأنه يعرفني.. لكن على الأقل تبدو الأمور طبيعية الآن.. زوجي يجلس في الاستراحة ويطلب مني بحنان أن أجلس بجانبه.. أن لا أفهم.. كيف انتهى بي الأمر بالنوم في غرفة الطبيب؟!.. لم أجد الوقت لأفكر بإجابة هذا السؤال.. إذ انتبهت للممرضة وهي تقول للطبيب شيئا ما بكلمات هامسة لم تصل إلى مسامعي.. الطبيب يلتفت لينظر إلي بتفهم.. ثم ينظر إلى زوجي ويصافحه مرحبا.. ليطلب مني برفق أن أتبعه إلى غرفته.. ذهبت معه بتوتر ملحوظ.. فجلست على الكرسي المقابل لمكتبه.. وذهب هو إلى الدولاب ليخرج منه بعض الأوراق.. لا يمكن.. إنه.. إنه نفس الدولاب الموجود في غرفة النوم التي استيقظت فيها اليوم!!.. هناك شيء غير مفهوم.. يبدو أنني ما زلت أحلم.. متى ستنتهي سلسلة الأحلام هذه.. صرخت بقوة شاعرة أنني وقعت في بئر عميق لا قرار له.. ثم.. فقدت وعيي أخيرا!!!.

استيقظت صباحا بعد تلك الأحداث المعقدة.. لأجد نفسي في فراشي وغرفة نومي الحبيبة.. التفت حولي بسرعة لأتأكد أكثر.. إنها غرفتي هذه المرة دون شك.. أنظر إلى صورة زفافنا باطمئنان.. لأرى نفسي في الصورة متأنقة مبتسمة أقف إلى جانب زوجي.. لقد انتهى الحلم لحسن الحظ.. لكن.. أين زوجي.. آه.. إنه يأخذ حماما ساخنا كعادته كل صباح.. أسمع صوت

المياه تندفع بغزارة.. أناديه بمرح لأسأله عما يريد تناوله على الإفطار.. فيجيب بأنه يريد بيضا مقليا.

أذهب وأعد الإفطار كوني تزوجت حديثا ولم تصل خادمتنا حتى الآن.. ثم أعود للغرفة لأجد زوجي وقد خرج من الحمام للتو.. أخبره عن تفاصيل الحلم وكيف بدا حقيقيا بصورة غريبة.. فيبتسم.. ثم تتحول الابتسامة إلى ضحكات حميمة متبادلة.. ليقبل جبيني ويجلس مقابلي على منضدة الإفطار الصغيرة.. يجب أن أستعد بعد قليل للذهاب بدوري إلى العمل.. مهلا.. هناك صورة أخرى لزفافنا في غرفة المعيشة.. إنها لي.. لكن زوجي في تلك الصورة يبدو وكأنه شخصا آخر!!!.. إنه الطبيب الذي ذهبت لزيارته في الحلم!!.. ألتفت وأحدق بزوجي مرة أخرى.. ملامحه تتغير بصورة مرعبة ليصبح شبيها بالطبيب!!.. لا يمكن.. ما زلت أحلم.. إنني أعيش وسط أحلام لا تنتهي.. متى سينتهي هذا الجحيم؟!!!.

استيقظت (شيماء) بذعر إثر استيقاظ زوجها من النوم صارخا.. حاولت أن تربت على كتفه مطمئنة.. لكنه نظر إليها والعرق يملأ جبينه.. ثم صرخ بقوة وهو يقول:

- إنك لست زوجتي.. من أنت بالضبط؟!.

تخبره بألم:

- إنني زوجتك يا عزيزي.. أرجوك.. حاول أن تستعيد توازنك.. لقد كنت تحلم!!.

نظر حوله بسرعة ليجد نفسه في مكان غير مألوف.. فعرف أنه يحلم الآن أيضا ولم يستيقظ بعد.. إنه غارق في أحلام لا تنتهي.. راح يصرخ.. ويصرخ.. ويصرخ وهو يشعر أنه وقع في بئر عميق لا قرار له!!!.

عزيزي القارىء.. بعيدا عن هذا المشهد المربك غير المفهوم.. وبعيدا عن عالم الأحلام.. تجلس فتاة رقيقة في غرفة طبيب كبيرا في السن.. تنظر إليه بعينين دامعتين وتسأله:

- ماذا يحدث بالضبط؟!.

يرد الطبيب بحزن:

- مع الأسف.. لقد حذرت زوجك كثيرا من أبحاثه هذه وأنها قد تقوده إلى ما لا يحمد عقباه.. لكنه ظل مقتنعا إنه على حق.. واستمر بإجراء أبحاثه دون الالتفات لتحذيراتي.

تسأله بألم:

- عن أي أبحاث تتحدث؟!.

فيجيب الطبيب بأسف:

- لقد كان زوجك -وبحكم سنه الصغيرة وطبيعة تخصصه في علم النفس- يبحث عن المجد.. ويصر على إدخال العلوم الروحانية بالطب.. فراح يجري أبحاثا كثيرة حول (النفضة النومية).. هل سمعت عنها؟!.

تهز الفتاة رأسها نفيا بحزن.. ليقول الطبيب:

- أثناء أحلامنا.. نشعر أحيانا أننا نسقط من علو مرتفع.. ثم نستيقظ فجأة قبل أن نرتطم بالأرض.. من المؤكد أنك تعرفين ما أتحدث عنه ([9]).

تقول الفتاة بعدم فهم:

- نعم.. مررت بتلك التجربة بالفعل مرة أو مرتين أثناء نومي.. لكن.. كيف أثر هذا على زوجي ووضعه في حالة الغيبوبة الغامضة هذه؟!.

يرد الطبيب وهو يزفر:

- لقد كانت له نظرية غريبة جدا توصل إليها في أبحاثه.. أن (النفضة النومية) هذه وشعور البشر أثناء الحلم أنهم يسقطون من علو مرتفع.. هي في واقع الأمر ليست سوى محاولة من عقلنا الباطن للتحرر من القيود النفسية والوصول للقاع!!!.

تسأله الفتاة بعصبية:

- أي قاع هذا؟!!.

يقول ببساطة:

- السقوط لا بد وأن ينتهي عند الوصول إلى قاع ما.. أليس كذلك؟!.. هذا ما قاله زوجك.. يقول أيضا إن هذا القاع يحوي شيئا ما.. سر تركه أسلافنا منذ فجر التاريخ الإنساني.. حقيقة مخيفة تخصنا معشر البشر وتريد أرواح الإنسان القديم إبلاغنا بها.. فتحاول التواصل معنا أثناء نومنا وتطلب منا الوصول إلى القاع لتكشف لنا هذا السر!!.. لكن هناك قيود روحانية مجهولة تجعلنا نستيقظ حال سقوطنا في الحلم وقبل وصولنا إلى القاع.. وسبب استيقاظنا دوما هو عقلنا الباطن أيضا.. لأنه يفعل هذا حماية لنا كوننا لن نحتمل ما سنراه!!!.. هذا ما كان يقوله زوجك بسبب تعمقه في دراساته لعلوم ما وراء الطبيعة ومحاولته فهم أسرار النفس البشرية!!!.

سألته الفتاة بحيرة:

- لماذا لا تتواصل معنا أرواح أسلافنا أثناء استيقاظنا؟!.. سيكون هذا أسهل إذا كانت نظريته صحيحة.. أليس كذلك؟!.

رد مبتسما بأسى:

- خطأ.. لقد طرحت هذا السؤال على زوجك منذ مدة.. فالتواصل النفسي عبر العقل الواعي مستحيل تقريبا بسبب المؤثرات اليومية التي تسيطر على حياة كل منا.. لذا فإن التواصل عبر عقلنا الباطن أسهل بكثير.. خاصة أثناء النوم.. كون العقل الواعي يكون غائبا تماما مما يفسح المجال بالكامل للعقل الباطن ليكون هو المسيطر.. لكن رغم ذلك.. يوقظنا عقلنا الباطن كل مرة قبل الوصول إلى القاع كي يحمينا من الحقيقة المخيفة التي يريدنا أسلافنا أن نعرفها.

سألته الفتاة مرة أخرى بنفاد صبر:

- تريد أن تقول إن زوجي تمكن من الوصول إلى القاع وعرف السر الذي تريد أرواح أسلافنا اطلاعنا عليه!!.. أليس كذلك؟!.. كيف فعل هذا إذا كان عقلنا الباطن يجبرنا على الاستيقاظ كل مرة قبل وصولنا إلى القاع؟!.

رد باهتمام:

- من خلال الأحلام المتجلية!!!.

سألته الفتاة بعصبية:

- أرجوك لا تتحدث معي وكأنني خبيرة.. ما هي الأحلام المتجلية؟!.

غمغم بلهجة يشوبها الاعتذار:

- إنها الأحلام التي يدرك خلالها الإنسان أنه يحلم.. وخلالها يستطيع التحكم بتصرفاته.. هذا يحدث معنا جميعا أيضا بين الحين والآخر.. بل إن هناك طرقا وتمارين متعددة تمكن الإنسان من ممارسة الأحلام المتجلية هذه متى شاء ([10]).. وهي مختلفة تماما عن أحلام اليقظة ([11]).. فهي تحدث أثناء نومنا.

انهارت الفتاة وراحت تبكي بحرقة بعد أن شعرت أن ما يقوله الطبيب يبدو كالمرض الذي لا علاج له.. فاحترم صمتها وبكاءها.. ثم قال بأسف:

- لا أعرف ما يجب فعله.. إن زوجك واقع في ما هو أشبه بالغيبوبة.. لكنها ليست غيبوبة!!!.. لقد حاولنا إيقاظه بشتى الوسائل دون أي استجابة منه.. إذ تشير الأجهزة إلى نشاط دماغي قوي يوحي بأنه يحلم باستمرار دون توقف.. وكأنه مصاب ب. (شلل النوم).. أو (الجاثوم) كما يطلق عليه ([12]).. الأمر ليس واضحا.. ربما يجب أن تفكري بعلاجه في الخارج.. قد تفيد الخبرات هناك بصورة أكبر.. لقد حاولت منعه من القيام بتلك التجارب.. إنه قريبي كما تعلمين.. لكنه أصر على تجاربه.. فحافظت على سريتها احتراما لرغبته.

قال الطبيب كلمته هذه.. لتخرج الفتاة وهي تمسح دموعها شاعرة بالذنب كونها طلبت الطلاق من زوجها منذ أيام قليلة فحسب بسبب العقم الذي يعانيه وعدم قدرته على الإنجاب.. غير عالمة أن زوجها يعيش سلسلة أحلام دون توقف بالفعل.. بعد أن نجح في تجاربه.. وتمكن بواسطة الأحلام المتجلية أن يرى ما يوجد في قاع أحلامنا.. لكن.. يبدو أن ما رآه كان مرعبا يفوق قدرته على التحمل!!!.. ففقد عقله أثناء أحلامه المتجلية.. حتى بات عاجزا عن الاستيقاظ.

وقد كان عقله الباطن يتقمص شخصية زوجته أثناء الحلم من فرط حبه لها!!!!.. فكل الأحداث المتشابكة التي قرأناها في القصة كانت أحلامه هو!!!.. إذ لم يحتمل فكرة الطلاق أبدا.. لتتداخل قصة فشل زواجه.. مع أبحاثه حول اكتشاف ما يوجد في قاع (النفضة النومية).

أما الطبيب.. فقد راقب خطوات الفتاة وهي تخرج.. ثم نظر إلى قريبه الواقع في غيبوبة غير مفهومة.. أو (نوبة نوم) إن صح التعبير.. ليقول بحزن:

- لا أعلم كيف أوقظك يا قريبي العزيز.. من يدري إن كنت أنت في العالم الحقيقي.. أم نحن!!.. فما يراه المرء وحيدا.. نطلق عليه كلمة (حلم).. وما نراه جميعا.. نطلق عليه كلمة (واقع)!!!.. ليتني أستطيع مساعدتك.. ليتني تمكنت من منعك.. لكنك كنت تقول بحماس: ((سيتطلب الأمر جيشا كاملا لمنعي من تحقيق طموحي))!!!.

يردد هذا الكلام.. وقريبه يعيش صراعا لا يتوقف في أحلام متداخله تقمص فيها شخصية زوجته التي يحبها كثيرا.. يتمنى أن يستيقظ من أحلامه ويحاول ذلك جاهدا.. لكن دون جدوى.. فكيف يهرب من هذا السجن إذا كان لا يرى حدوده؟!.. خاصة بعد أن كشف السر الذي نجهل جميعا ماهيته.. ووصل للقاع!!.

ميتة..

عادت إلى الحياة!!.

أعترف أنني قتلت زوجتي!!.. فهذه أفضل بداية لقصتي دون أي مقدمات.. مهلا.. لست مجرما ولست معتادا على ارتكاب جرائم القتل إن كان هذا ما سيخطر ببالكم.. لقد قتلت زوجتي في لحظة انفجار.. لحظة غضب.. بعد تفاقم الخلافات بيننا دون أن يدرك أي منا سببها.. وأعتقد أن أي طبيب شرعي في العالم يفحص جثتها سيؤكد أن الجريمة عبارة عن قتل بالخطأ.. لكن هذا ليس كافيا بالطبع.. فما زلت أشعر بضميري يصرخ في أعماقي وكأنه كيان هائل يزداد ضخامة كل يوم إلى أن يلتهمني.. وما زلت ألوم والدتي -بيني وبين نفسي- سامحها الله.. لقد كانت دوما تطلب مني الزواج وتتوسل إلي أن ترى أحفادها قبل موتها.. حتى صرت تحت ضغوط هائلة من جميع أفراد العائلة الذين ظلوا يطلبون مني الزواج إرضاء لوالدتي فحسب.. دون أن يفكر أحد برغبتي أنا.. لأوافق أخيرا تحت ضغوطهم دون اقتناع.. مع الأسف.. يتحدثون دوما عن بر الوالدين ولا يتحدثون عن الرفق بالأبناء.. فيرسمون لهم خطا إجباريا مبنى على عقلياتهم القديمة.. وحين يكبر الأبناء ويلومون آباءهم على ذلك.. يصفونهم بالعقوق وقلة الأصل!!!.

المعذرة لهذه الفضفضة.. فنوبات الحزن الفجائية هذه لغز لا أفهمه.. المهم.. كنت أقول إنني -ومع كل أسف- لم أرَ زوجتي المرتقبة هذه سوى مرة واحدة قابلتها فيها بوجود شقيقاتها.. حين تحدثت إليها لأعرفها عن قرب على حسب قولهم!!.. وهو أمر سخيف بكل تأكيد.. فهل يعقل أن أرتبط بفتاة طوال حياتي بعد لقاء لا يتجاوز ساعات قليلة؟!.. لكني أبديت موافقتي في النهاية.. ليتم بعدها الزواج وأدخل عالما جديدا لا أعرفه ولا أحبه.. عالم المتزوجين.. فتضاعفت المسؤوليات المادية والاجتماعية بتسارع غريب.. وازدادت الضغوط النفسية.. حتى بت أستذكر حياتي قبل الزواج بأسى.. فأقف كل يوم عند نافذة ذكرياتي لأتحسر على الأيام الجميلة.. وكل يوم يمر.. يطول وقوفي وتكبر آلامي.

وهذه الهزة العنيفة لها تبعاتها دون شك.. إذ أصبح ذهاب زوجتي لبيت أسرتها والبكاء أمامهم بسبب خلافاتنا أمرا معتادا مع مرور الأيام.. إلى أن حدثت الكارثة ذات يوم.. فعندما يأخذ منك الزواج كل شيء.. حتى الأمل.. عندما يجعلك تعثر على ذلك المكان المظلم في ذاتك.. هل سيلومك أحد لو انفجرت؟!.. لأنني انفجرت ليلتها أثناء شجارنا لأصفع زوجتي بكل قوتي مع الأسف.. فوقعت على حافة أحد المقاعد.. ليخرج من رقبتها صوت فرقعة!!!.. للحظة ظننت إنها تتصنع الإغماء.. أو تعرضت للإغماء فعليا وهو أسوأ ما قد يحدث.. لكني فوجئت أنها أصبحت جثة هامدة تنظر إلى الفراغ بنظرة الموت الشهيرة.. في ليلة وضحاها أصبحت قاتلا وتحولت من مجرد شاب عادي يصارع الحياة من أجل لقمة العيش.. إلى قاتل!!.

أتذكر جيدا تلك اللحظات التي تلت مصرعها.. حين صرخت وبكيت وأفرغت كل انفعالاتي.. ثم أمسكت بهاتفي رغبة مني بالاتصال بالشرطة.. لكني تراجعت في اللحظة الأخيرة مترددا ومتسائلا في قرارة نفسي إن كانت تلك الخطوة صحيحة.. حتى إنني ظللت على هذا الحال دقائق طويلة في واحدة من أسود ليالي حياتي.. فالاتصال بالشرطة سينهي مستقبلي ويضعني في مواجهة كارثية مع أهل زوجتي.. حتى لو ثبت أن جريمة القتل هذه ارتكبت بالخطأ.. لكن.. إخفاء الجثة وادعاء خروج زوجتي من البيت دون عودة قد يمنحني الفرصة للنجاة.. هكذا ظلت غريزة الخروج من

المآزق -إن كانت تصنّف كغريزة- تصرخ في عقلي.

فارتديت ثياب الخروج على عجالة آملا أن أنقذ ما يمكن إنقاذه.. وألبست جثة زوجتي ثياب الخروج أيضا لأعطي انطباعا أنها لقت حتفها خارج البيت.. ثم خرجت من شقتي وأنا أحمل جثتها في وقت متأخر من الليل.. ألتفت حولي بقلب تضاعفت خفقاته عشرات المرات من شدة الرعب.. فلو رآني أحد من الجيران لانتهى كل شيء.. لكن لحسن الحظ كان الحي هادئا.. ثم وضعت الجثة في صندوق سيارتها مع حقيبتها وهاتفها.. ورحت أقود بيد لم تتوقف عن الارتجاف لحظة واحدة دون أن أعلم إلى أين سأذهب تحديدا.. فعقلي توقف عن التفكير.. لكني في النهاية وجدت نفسي قريبا من منطقة صحراوية بجانب مصافي النفط.. لأخرج من الشارع المسفلت وأقود السيارة في الطريق الوعر.. ثم أتوقف في نقطة محددة ليست بعيدة عن الشارع العام. وهناك أخرجت جثة زوجتي من الدولاب ووضعتها أمام المقود.. ثم تركت كل شيء خلفي.. لماذا لم أدفن جثة زوجتي لأخفيها عن الأنظار على الأقل؟!.. لا أعلم.. ربما لأنني شعرت أن هذا سيظهرني بمظهر القاتل المحترف.. ربما إخفاء جثتها أو دفنها سيتطلب وقتا طويلا لا أملكه وتخطيطا لست مستعدا له.. صدقوني.. تلك اللحظات تسلب الإنسان عقله وتجعله يتصرف بغباء.. لهذا على الأرجح يسقط معظم القتلة بيد القانون سريعا.. خاصة لو كانوا مثلي.. أناس عاديون ارتكبوا جرائمهم دون قصد.

بدأت بعدها رحلة سير طويلة استمرت أكثر من ساعة.. إلى أن عثرت على سيارة أجرة أخيرا.. فأوقفتها وطلبت من السائق أخذي إلى السوق المركزي القريب من شقتي.. لم أكن أريده أن يعرف مكان إقامتي.. إنه توتر المخطيء بلا شك.. والذي يجعله يرتاب في كل شيء.

وصلت إلى شقتي وأنا أرتجف بصورة ملحوظة.. فقمت بتنظيف كل أثر للشجار.. ورميت ثيابي في الغسالة.. ثم وضعت فوقها كمية ضخمة من الصابون.. وأخذت حماما طويلا وكأنني أنظف نفسي من كل ما حدث.. لأتجه إلى فراشي بعد هذا العذاب النفسي والبدني محاولا النوم.. حقا كانت ليلة طويلة جدا.. يمر الوقت دون أن يمر!!.. فأتقلب في فراشي باستمرار من شدة القلق غير مصدق أن مجرى حياتي تغير بأكمله في لحظة غضب.. إلى أن نمت أخيرا من شدة الإرهاق.. لأستيقظ فجأة دون سبب واضح.. وأجد أن الساعة تتجاوز التاسعة صباحا.. فاتصلت بأهل زوجتي لأخبرهم عن شجارنا وأسألهم إن كانت زوجتي موجودة عندهم.. بالطبع أجابوا بالنفي.. وبالطبع أيضا راحت شقيقتها تصرخ وتهددني إن أصاب زوجتي مكروها فإنها سوف.. وسوف.. وسوف.. إلخ.. من تلك التهديدات المملة.

أغلقت الخط بوجهها.. فهي آخر ما يثير قلقي الآن.. ثم اتصلت بالشرطة مباشرة.. لأخبرهم أن زوجتي خرجت من البيت أثناء شجارنا مساء أمس.. ولم تذهب إلى بيت أهلها كما هو مفترض.. بل اختفت ولا أعلم أين هي.. وأبلغتهم كذلك إنني اتصلت بها أكثر من مرة لكن هاتفها المحمول ظل مغلقا كوني أغلقته وتركته بين طيات ثيابها.

لا داعي للحديث عن الهزة العنيفة التي أصابتني وأصابت عائلتها.. والمشاكل التي تعرضت لها بسبب كذبتي.. فقد بدوت مذنبا أمام الجميع وهم يوجهون لي اللوم لأنني تركت زوجتي تخرج غاضبة في وقت متأخر على حد قولهم.. في حين أتلقى مكالمات هاتفية متفرقة من أفراد عائلتي وكل منهم يشد من أزري ببعض الكلمات.. ثم يلتفت لحياته ويحمد الله في سره أنه ليس أنا!!!.. هذا متوقع.. فمهما تعاطف الناس معك.. لن يأخذ مشاكلك محمل الجد سواك.. حقا أن الإنسان وحيد.. وحيد إلى درجة مروعة.. ولن يشعر أحد بذلك إلا لو تعرض لمصيبة كمصيبتي..

وكما هو متوقع.. كنت المشتبه به الأول في قضية اختفاء زوجتي.. خاصة وأن جميع صديقاتها تم استدعائهن.. وجميعهن أنكرن علمهن بموضوع اختفائها.

الغريب أنني واجهت التحقيقات بيأس وكأنني أعلم أن رجال الشرطة سيكشفون جريمتي ويلقون القبض علي عاجلا أم آجلا.. فاستسلمت وجلست أنتظر مصيري ولحظة إلقاء القبض علي بعد أن تركت عشرات الأدلة وإن كنت لا أدرك ما هي تحديدا.. لكن رجال الشرطة سيتوصلون إلى

كل شيء.. هكذا تعلّمنا دوما.. فكنت كالمحكوم عليه بالإعدام الذي ينتظر تنفيذ الحكم.. وهذا اليأس أبعد عني التوتر وأظهرني بمظهر الشخص الحزين لفقدان زوجته مما أبعد عني الشكوك نسبيا دون قصد مني.

حدث كل هذا في غضون أيام قليلة فحسب.. قبل أن تنفجر مفاجأة جديدة لم أتوقعها أبدا.. حين علمت أن رجال الشرطة عثروا على سيارة زوجتي حيث تركتها.. لكن السيارة كانت خالية تماما!!!.. نعم.. لم يعثروا على الجثة هناك.. ولكم أن تتخيلوا وقع الصدمة علي.. فقد تأكدت من موتها بنفسي.. أحاول أن أعثر على تفسير لاختفاء جثتها دون جدوى.. التفسير الوحيد مستحيل.. وهو أنها لم تمت أصلا!!!.. ولا أعلم لماذا لم يسعدني ذلك.. ربما لأنه سيعني كشف كذبتي أمام الجميع.. بما فيهم رجال الشرطة.. في النهاية.. قررت الانتظار بترقب لأرى ما ستسفر عنه التحقيقات.. وهذا الانتظار كانت له تبعات نفسية هائلة.. حتى إنني فقدت الكثير من وزني في بضعة أيام بسبب الحياة المبعثرة غير المستقرة التي بت أعيشها.

ويبدو أن تلك القضية كانت بمثابة كرة الثلج التي تتدحرج وتكبر دون توقف.. إذ لم يعثر رجال الشرطة على أي أثر لزوجتي أو لجثتها بعد بحث استمر عدة أيام.. حتى إنني ظللت أترقب الاتصال الهاتفي الذي سينهي مستقبلي.. لكنه لم يأتِ أبدا.. لتمر الأسابيع.. ثم الشهور.. بل والسنوات!!!.. ويبدأ توتري يقل تدريجيا.. إلى أن دب اليأس في قلوب الجميع.. ليعتبروا قضية اختفاء زوجتي من تلك الألغاز التي ستُذكر في الكتب يوما على أنها من القضايا الغريبة الغامضة التي لم يتوصل رجال الأمن لحلها.. وهكذا بدأت أعود تدريجيا لممارسة حياتي بصورة طبيعية إلى أن نسيت القضية برمتها.. آملا أن أكون أحد المحظوظين القلائل الذين نجوا بفعلتهم بمعجزة غير مفهومة.. إلى أن جاءت تلك الحادثة المرعبة!!!.

فبعد أكثر من 3 سنوات تغيرت فيها حياتي كثيرا.. حيث انتقلت مرة أخرى إلى بيت العائلة.. وصرت أكثر هدوءا وحبا للحياة بعد أن شعرت أنني نجوت من اتهامي بجريمة القتل ومُنحت فرصة أخرى لأعيش أعزبا دون هموم الزواج.. وبعد أن توقف جميع أفراد عائلتي -وخصوصا والدتي- عن مضايقتي والإلحاح علي بالارتباط مرة أخرى.. كنت جالسا ذات ليلة في فندق (راديسون بلو).. أشرب القهوة وأعبث في هاتفي النقال محاولا الاسترخاء بأجواء المكان.. حين رأيت مجموعة من الحسناوات يجلسن في ركن آخر من المقهى ويتحدثن بمرح وبصوت مسموع.. التفت ناحيتهن لا شعوريا وأنا أتأمل هذا الجمال والفتنة.. 6 أو 7 فتيات في منتصف العشرين من العمر ربما.. إحداهن بيضاء البشرة قصيرة الشعر ترتدي بنطلون الجينز وقميص أبيض.. وأخرى بيضاء البشرة أيضا.. لكنها طويلة الشعر وترتدي فستانا جعلها كالملاك.. وهذه.. هذه... يا إلهي!!!.

توقفت الأفكار في عقلي فجأة.. وشهقت لا شعوريا بصوت مسموع حين انتبهت لتلك الفتاة.. تماما كما تتوقعون.. إنها زوجتي!!!.. لا يوجد أدنى شك في ذلك.. خفق قلبي بقوة.. ونهضت من

مكاني وأنا أحدق بها غير مصدق.. بالطبع لاحظن جميعهن ردود أفعالي.. لكن.. لم يبدُ على زوجتي أي ردة فعل بالمقابل!!.. بل تصرفت وكأنها لا تعرفني أصلا.. إنها زوجتي دون شك.. الفتاة التي عشت معها في شقة واحدة أكثر من سنتين قبل تلك الحادثة.. ربما تكون قد نحفت قليلا.. فنحن نتحدث عن 3 سنوات منذ المرة الأخيرة التي رأيتها فيها.

عدت لأجلس على مقعدي والصدمة واضحة على ملامحي.. وقد نسيت كوب القهوة الذي كنت ممسكا به طوال هذه المدة.. فوضعته على المنضدة بيد ترتجف لا شعوريا.. كيف يمكن أن أفسر ما أراه؟!.. هل هذا يعني أن زوجتي على قيد الحياة؟!.. مستحيل.. وحتى لو لم تمت.. فلا يمكن أن تنجو وتذهب لتعيش حياة طبيعية وكأن شيئا لم يكن!!!.. ثم.. هل يعقل أن تراني وتتصرف وكأنها لا تعرفني؟!.. وفي خضم زحمة الأفكار.. قررت أن أتبعها بسيارتي حال خروجها.. على الأقل سأعرف مكان سكنها تمهيدا لخطوة أخرى سأفكر بها لاحقا.

خرجت من الفندق سريعا.. وجلست في سيارتي أنتظر وقد وجهت المرآة ناحية البوابة الرئيسية للفندق.. الدقائق تمر ببطء لا أفعل فيها شيئا سوى النظر إلى المرآة كي لا تخرج زوجتي دون أن أراها.. و.. ها هي تخرج مع الفتيات اللاتي تفرقن جميعا وكل منهن ذاهبة إلى حال سبيلها.. إنها تسير بهدوء ناحية سيارتها وقد بدت متأنقة للغاية.. من الصعب التأكد من طولها كونها ترتدي حذاء ذا كعب عال.. يا إلهي.. لم أجد أي تفسير منطقي لاختفاء جثتها طوال السنوات الماضية.. ولا أجد أي تفسير منطقي لما أراه الآن!!.

خرجت بسيارتها الفارهة التي لا تملك عائلتها ربع ثمنها.. فتبعتها بسيارتي محاولا ألا أفقدها في زحمة الشارع.. إنها تتجه إلى منطقة (سلوى) القريبة.. ثم تدخل حيا داخليا وتقف بالقرب من بيت هائل الحجم تبدو عليه علامات الثراء والبذخ كحال كل بيوت تلك المنطقة التي تطل على شارع (التعاون).. كيف تبدل حالها بهذه الصورة الغريبة؟!.

عدت بعدها إلى البيت شاعرا أنني أعيش لغزا هائلا غير مفهوم.. وقد فكرت للحظة أن أتجاهل كل شيء طالما لم تطلني تحقيقات الشرطة.. لكن القلق فرض هيمنته علي.. تبا.. ماذا لو؟!.. ماذا لو؟!.. لا أعرف.. أحاول أن أرسم أي سيناريو عقلاني ممكن الحدوث لكن.. كيف يفسر العقل ما هو غير عقلاني أصلا؟!.. في النهاية.. قررت أن أراقب زوجتي ابتداء من الغد.. وربما أواجهها صراحة علّني أكشف هذا اللغز.

وبالفعل.. ففي مساء اليوم التالي.. كانت سيارتي تقف هناك وبمكان قريب نسبيا من بيتها.. أخرج عشائي البسيط الذي جلبته معي تمهيدا لساعات طويلة قد أقضيها في المراقبة.. ألتهم ساندويتش الفلافل ببطء وأجرع من علبة المشروبات الغازية.. أستمع إلى موسيقى هادئة تنبعث من راديو سيارتي.. السيارات تمر بجانبي بين الحين والآخر.. مع بعض المارة أيضا.. ولا شيء آخر على الإطلاق!!.. إلى أن قررت العودة إلى البيت بعد أن تأخر الوقت.

كررت الأمر في اليوم التالي.. وانتظرت ساعات قليلة.. هذه المرة رأيت زوجتي تخرج أخيرا والساعة تتجاوز السادسة مساء بقليل!!!.. ليتجمد بصري عليها.. إنها هي بكل تأكيد.. أراها تمشي بهدوء وقد بدت متأنقة للغاية كما كانت في المرة الأولى.. ثم تركب سيارتها وتخرج لمكان ما.. عندها أدرت محرك سيارتي وتبعتها.. سأحاول مواجهتها كما خططت.. لا بد من ذلك كي أفهم ما يحدث وإلا سأصاب بالجنون.. أقود سيارتي بجانبها.. ترمقني بنظرة سريعة دون اكتراث.. تماما كما حدث في الفندق.

تبعتها إلى أن وصلَت إلى مجمع (الراية) التجاري.. فركنت سيارتي بأقرب موقف عثرت عليه عند سيارتها.. ثم نزلت بلهفة لأسير خلفها متجها إلى المجمع.. ولا أنكر أن أناقتها أشعلت نيران الحنين في قلبي.. غريب حقا.. تكره زوجتك وتتمنى تركها في أسرع وقت.. لكن حين تبتعد عنك فترة طويلة.. تجد نفسك فجأة تشتاق إليها.. حقا أن الإنسان لغز بحد ذاته!!.

أفكر بذلك وأنا أتبعها وألتف نحوها كي أقابلها وجها لوجه.. لكن.. للمرة الثالثة.. تنظر إلي بلا مبالاة.. ثم تشيح بوجهها.. وكأنها لا تعرفني.. لا بد من المواجهة الآن.. تنحنحت لأقول:

- المعذرة.

نظرت إلي بحدة ظنا منها أنني سأقوم بمعاكستها.. لكني قلت بثبات وشجاعة:

- زوجتي اختفت منذ مدة طويلة.. والشرطة تبحث عنها دون جدوى.. إنك تشبهينها إلى درجة غير معقولة.. اسمها (......).. هل تعرفينها؟!.

لا يمكن أن تفوتني نظرات التوتر.. لقد ارتبكت الفتاة كثيرا.. لكنها تمالكت نفسها بسرعة.. إذ هزت رأسها نفيا دون أن ترد.. عندها أخرجت هاتفي لأريها صورة لزوجتي كنت قد احتفظت بها طوال تلك المدة دون أن أعرف أنا نفسي السبب.. ثم:

- سيدتي.. أرجوك.. أنا لا أمزح ولا أقصد معاكستك.. أنظري.. هذه صورة زوجتي.. الصورة لا تكذب.. هل لي أن أرى هويتك الشخصية؟!!.

طلب سخيف لم تستجب له بالطبع.. فقط حدقت بالصورة بعينين سرعان ما اتسعتا على آخرهما.. ثم أشاحت بوجهها سريعا وهي تقول بكلمات مبعثرة:

- المعذرة.. لا أفهم ما تريد.. أنا لست زوجتك بكل تأكيد.

هذا ما قالته حرفيا.. لكن ملامحها قالت ما هو أكثر من ذلك.. ليتني تأكدت من الصوت.. المشكلة أنها لم تنطق سوى بالقليل وبصوت مبحوح من هول المفاجأة.. على الأقل تأكدت الآن إن هناك قصة أجهلها تدور أحداثها خلف الكواليس.. أقف وسط المجمّع أفكر بما يجب فعله.. لتهبط على رأسي حقيقة كالصاعقة لم أنتبه لها سوى الآن.. إنها حقيقة بديهية لكن إحساسي بالذنب ومعرفتي بالجرم الذي ارتكبته جعلني أشعر أن العالم بأكمله ينظر إلي بعين الاتهام.. فأنا في موقف القوة هنا!!!.. نعم.. إنني أمام القانون لست سوى رجل ملتاع يبحث عن زوجته.. إذا ليس لدي ما أخشاه.. هذا الاكتشاف منحني شجاعة مفاجئة لمواجهة أكثر صراحة وجرأة.. إذ تبعت زوجتي إلى ذلك البيت.. وانتظرت بضع دقائق بعد دخولها.. ثم ذهبت لأضرب الجرس بثبات.. يرد صوت أنثوي يسأل باللغة الإنجليزية عن هوية الطارق.. فقلت بإنجليزية ركيكة:

- أريد التحدث مع أي رجل في هذا البيت!!.

انتظرت لحظات قليلة.. ليخرج رجل في الأربعين من العمر.. صافحني مبتسما وهو يسألني عن هويتي.. فقلت بثقة:

- المعذرة لهذه الزيارة.. أنت لا تعرفني.. إنني أبحث عن زوجتي.

لم أمنحه الفرصة ليفكر.. إذ وضعت صورة زوجتي أمام وجهه وأخبرته بكلمات سريعة بكل ما حدث منذ اختفائها ولغاية لقائي بها قبل قليل في مجمع (الراية) -متجنبا الحديث عن ارتكابي

للجريمة- عندها تخاذل تماما وبدا هشا ضعيفا.. وهذا ما شجعني لأقول بحزم:

- أعتقد أنك يجب أن تشرح لي كيف لزوجتي أن تتواجد في بيتكم.

سألني بتوتر:

- وما الذي يجعلك واثقا أنها زوجتك؟!.

وضعت الصورة مرة أخرى أمام وجهه بغضب وأنا أقول:

- أنا لست أحمق.. أنظر إلى الصورة جيدا.. إنها زوجتي التي اختفت منذ أكثر منذ 3 سنوات.. أخبرني بالحقيقة وإلا سأبلغ الشرطة.. ستكون فضيحة أنت وعائلتك في غنى عنها.

حاول الإنكار.. حاول التنصل.. لكن ملامحي الصارمة ونظراتي الثاقبة جعلته ينهار.. ليحمر وجهه.. وتتوتر ملامحه.. لا أصدق أن شخصا مثلي سيثير خوف أحد أفراد عائلة كهذه.. وهذا ما شجعني لأضيف بقسوة:

- هل ستدعوني للدخول؟!.. أم نخرج معا للتحدث؟!.

أشار لي بيده مستسلما للدخول.. فتبعته.. حسنا.. لا داعي لوصف روعة وجمال البيت من الداخل.. حديقة داخلية كبيرة تأسر العين.. رائحة الزهور تملأ الأنف.. ديكور فاخر للغاية.. ولم تكن غرفة المعيشة أقل جمالا.. ذات الروعة والجمال.. ذات اللمسات التي وضعها مهندس ديكور أو مهندس فني.. هل يوجد تخصص هندسة فنية؟!.. لا أعلم.

جلسنا في غرفة صغيرة نسبيا بدت وكأنها ممر لغرفة أخرى.. ثم قلت مباشرة:

- أخبرني بالحقيقة.. كيف وصلت زوجتي إلى بيتكم؟!.

سكت وطأطأ برأسه أرضا.. ليقول بتخاذل:

- سأخبرك بالحقيقة كاملة.

يا إلهي.. لقد كنت محقا إذا!!!.. هناك لعبة أجهلها تدور هنا.. التفت إليه بكل حواسي منتظرا منه المزيد.. ليكمل فجأة:

- هذه الفتاة ليست زوجتك كما تظن!!.

نهضت من مكاني وأنا أقول بغضب:

- هل ستعود للكذب؟!.

لوح بيده وهو يقول:

- مهلا.. استمع إلي وستفهم كل شيء.. لقد عثرت على زوجتك منذ مدة طويلة.. وقد كانت.. كانت ميتة!!!.. نعم.. عثرت عليها عند مصافي النفط أثناء عودتي من منطقة (الخفجي) لزيارة صديق سعودي.. لا أعلم كيف انتبهت لوجود تلك السيارة الحديثة نسبيا والمركونة في الصحراء.. ربما لأنها كانت على مسافة مرئية من الشارع العام.. فانتابني الفضول لمعرفة سبب وجودها هناك!!.

ازدردت لعابي بصعوبة كوني أنا الذي قتلت زوجتي ووضعت جثتها هناك في سيارتها كما تعلمون.. لكن رغم ذلك.. ترقرقت الدموع في عيني دون أن أشعر ودون أن أفهم السبب.. كأنني

كذبت وصدقت كذبتي.. ليقول بألم أمام دموعي:

- أقسم لك أنني لم أقتلها.. بل عثرت عليها ميتة فحسب.. ولا أعرف ملابسات ما حدث لها أصلا.

قلت بصوت متحشرج:

- أنا لا أفهم.. إذا من تكون هذه الفتاة التي تشبه زوجتي؟!.. إنها تحمل وجهها بكل تفاصيله!!.

رد وهو ينظر إلي مباشرة وكأنه سيخبرني بشيء لا يصدق:

- إنها شقيقتي.. لقد ولدت بوجه مشوه بالكامل تنقصه العديد من العظام بسبب مرض نادر جدا.. هذا المرض شبيه بما تعاني منه طفلة أمريكية تدعى (جوليانا ويتمور) إن كنت قد سمعت عنها.. فقد تناقلت قصتها وكالات الأنباء والقنوات الإخبارية أكثر من مرة ([13]).

لم يهمني أن أعرف أبعاد المرض.. لذا حبست أنفاسي لا شعوريا وانا أنتظر منه أن يكمل.. ليقول:

- المهم.. لقد مرت شقيقتي بعمليات تجميل عديدة لإصلاح هذا التشوه.. لكن دون جدوى مع الأسف.. ثم اقترح أحد الأطباء منذ سنوات قليلة أن نقوم بعملية زراعة وجه جديد لها.. حيث أخبرني أن بعض الأطباء في مدينة (بوسطن) الأمريكية قد نجحوا بذلك بالفعل.. إذ قاموا بزراعة وجه امرأة ميتة لأخرى حية تشوه وجهها إثر اعتداء قرد شمبانزي عليها ([14]).. وقد وجدت الفكرة رائعة بكل المقاييس بدلا من عمليات التجميل التي لم تحقق الفائدة المرجوة!!.. لكنا واجهنا صعوبة في العثور على متبرع.. حتى كدت أن أفقد الأمل.. إلى أن تغير كل شيء حين عثرت على جثة زوجتك بالصدفة!!!.. لقد أردت إبلاغ الشرطة في باديء الأمر.. إلا إن دافع الفضول جعلني أعبث في حقيبتها أولا لأعرف هويتها.. فاكتشفت من بطاقتها الشخصية أن فصيلة دمها تشبه فصيلة دم شقيقتي!!!.

سألته بذهول:

- تريد أن تقول إنكم قمتم بإجراء عملية جراحية لشقيقتك لمنحها وجه زوجتي؟ !!.. هذا لا يصدق.. أمر كهذا سيضعكم تحت المساءلة القانونية بكل تأكيد؟!.. كان يمكنكم الحصول على وجه فتاة ميتة بعد الاستئذان من أهلها.

زفر بقوة.. ثم قال:

- لأن شقيقتي لم تكن تملك هوية شخصية أصلا.. فقد ولدت في البيت.. ولم نستخرج لها أي إثبات كوننا لم نرغب أبدا أن يعرف أحد بوجودها.. أنت تعرف عراقة عائلتنا والمناصب

الحساسة التي يحتلها عدد كبير من أقاربي.. كنا نخشى أن ينتشر خبر وجود شقيقة معاقة لي.. خاصة وأن هذا المرض النادر متوارث مع الأسف في عائلتنا ونحاول أن نخفيه.. فقد ولدت عمتي رحمها الله بذلك التشوه أيضا.. وتوفيت في طفولتها من زمن بعيد كما ذكر والدي.. المهم.. لقد انتبهت إلى -المعذرة- جمال زوجتك وإلى فصيلة دمها.. وتذكرت شقيقتي حينها.. وأن وجه زوجتك قد يمنحها حياة جديدة.. فأجريت اتصالاتي بسرعة.. وجئت بمن أثق بهم لحمل الجثة ونقلها إلى مستشفى (....) الذي تمتلكه عائلتنا.. وهناك احتفظنا بالجثة بسرية تامة في الثلاجة.. ثم استقدمنا الطاقم الطبي ذاته من (بوسطن) ليجري عملية زراعة الوجه.. وقد

نجحت العملية نجاحا باهرا كما ترى.. وبالطبع انتحلت شقيقتي شخصية زوجتك وباتت تحمل هويتها ورخصة قيادتها.. وسأستخرج لها جواز سفر قريبا بعد أن نستخدم نفوذ عائلتنا لإزالة اسم زوجتك من ملفات الأشخاص المفقودين.

سألته بدهشة:

- هناك مشكلة كبيرة في خطتك هذه.

قاطعني بسرعة:

- أعلم.. فشقيقتي لا تعتبر شقيقتي في نظر القانون كونها تحمل اسم وهوية زوجتك.. لكني أعلم أنها شقيقتي.. وجميع أفراد العائلة يعرفون ذلك.. نحن نمنحها كل الاهتمام والحقوق المادية كاملة.. فالدم والعشرة هما ما يصنعان صلة القرابة وليس الاسم.. على الأقل الآن تستطيع أن تختلط بالناس وتمارس حياتها الطبيعية دون أن تلفت انتباه أحد.. بعد أن عاشت سنوات طويلة في البيت ونحن لا نعرف كيف نتصرف وكيف نجعلها تخرج إلى العالم.. أعلم أن ما أقوله لك لا يصدق.. لكن هذه هي الحقيقة كاملة.

سكت طويلا غير مصدق ما سمعته.. ثم قلت فجأة:

- ما الذي يمنعني من الإبلاغ عنكم بكل الأحوال؟!.

رد بقلق:

- تستطيع ذلك.. وتستطيع أيضا أن تقبل 100 ألف دينار مقابل سكوتك!!!.. أرجوك فكر جيدا.. لو تقدمت بشكوى ضدنا.. فسننكر كل شيء وسيقف بوجهك جيشا من المحامين.. خاصة أن شقيقتي غير موجودة أصلا في نظر القانون.. دعك من أن القضية غير مألوفة عند القضاء والنيابة.. وسيطول النظر فيها وقد يمتد لسنوات.. أما لو قبلت بالمبلغ.. فسينتهي الأمر.. لا تنسى أن زوجتك مختفية منذ مدة طويلة كما تقول.. وبدأت قضيتها تموت دون شك.. وربما أنت نفسك اعتدت على الحياة دونها.

إنه يتحدث بتوسل دون أن يعلم أن قاتل زوجتي يجلس أمامه الآن.. وإلا لانعكست كل موازين القوة بيننا.. هل أقبل بهذا العرض؟!.. بالطبع.. لقد قتلت زوجتي دون قصد.. وعشت فترة طويلة من التوتر الذي استنزف حالتي النفسية.. والآن سأحصل على مبلغ كهذا مع إغلاق ملف القضية إلى الأبد.. إنني محظوظ بطريقة لا يمكن أن تحدث في عالم الواقع!!!.

في اليوم التالي.. قابلت الرجل في مواقف سيارات نادي (كاظمة) الرياضي في منطقة (العديلية).. حيث ترجل من سيارته وهو يحمل حقيبة تشبه الحقائب التي يحملها رجال الأعمال.. ثم ركب سيارتي ليجلس بجانبي.. وفتح الحقيبة لأرى فيها رزما مالية كادت أن توقف قلبي.. أخذت منه الحقيبة مباشرة.. ليقول محذرا:

- أتمنى أن تبتعد عنا الآن.. وألا تلاحقني أبدا.. وسأحرص أن تجري شقيقتي بعض التغيير في شكلها كي لا يعرفها أحد مستقبلا.. كأن تصبغ شعرها.. أو تلبس النظارات.. لا أعلم.. النساء بارعات بتغيير أشكالهن.. لقد طلبت منها ذلك منذ إجراء العملية.. لكن فرحتها بوجهها وهويتها الجديدة جعلتها لا تأخذ تحذيراتي محمل الجد.. سيختلف الأمر بعد هذه الحادثة بكل تأكيد.

غمغمت بكلمات سريعة مؤكدا أنه لن يرى وجهي بعد اليوم.. قبل أن يترجل من سيارتي وهو

يغمغم بكلمات الوداع.. فكانت هذه المرة الأخيرة التي أراه فيها.. حيث عدت بعدها إلى البيت وأنا أختلس النظر إلى الحقيبة وقلبي يرقص فرحا.

تظنون أنني إنسان سيء؟!.. أرجوكم.. لا تحكموا علي بالأخطاء التي ارتكبتها.. بل بما تعلمته منها.. وقد تعلمت الكثير واكتسبت خبرات هائلة من هذه المأساة التي انتهت بطريقة غير متوقعة.. آملا أن أبدأ حياة جديدة خيّرة أنسى خلالها تلك الأيام السوداء بعد جريمة القتل التي ارتكبتها دون قصد.. وبعد أن ظننت أن زوجتي الميتة.. قد عادت إلى الحياة.

ليلة في المقبرة!!

أنا طبيب نفسي!!.. أعتقد أن هذه أفضل بداية لأستحوذ على اهتمامكم.. خاصة بعد أن قام ذلك الطبيب الذي لم يفصح عن هويته بنشر مذكراته سابقا على أكثر من جزء تحت مسمى (حالات نادرة) ([15]).. ليصبح مسمى (الطبيب النفسي) له مفعول السحر عند عدد ليس بالقليل من القراء.. حسنا.. أعترف أنها مهنة مختلفة بالفعل بسبب استماعك لأسرار المريض ومعرفة كل ما يتعلق بحياته الخاصة.. لكنها لا تتجاوز عادة علاج حالات الإدمان والأمراض النفسية المعتادة التي يعانيها الناس على درجات متفاوتة.. سوى في مرات قليلة حين تكون هناك حالات خارجة عن المألوف تختلف عن كل ما تمت دراسته في كلية الطب فلا يعرف الطبيب النفسي تحت أي بند يدرجها.. وهذا تحديدا ما حدث معي.

كان هذا منذ شهور قليلة.. حين دخل مكتبي ذات يوم صبي في الرابعة عشر من العمر كما بدا لي للوهلة الأولى.. وقد كان الخوف واضحا على ملامحه وهو يقف ملتصقا برجل في أوائل الخمسين عرفت سريعا أنه والده بسبب الشبه الواضح بينهما.

ابتسمت مرحبا.. وطلبت منهما الجلوس.. ثم انتظرت أن يبدأ أحدهما الكلام.. ليقول الأب دون مقدمات:

- لقد تعرض ولدي لتجربة مخيفة يا دكتور.. بصراحة لم أصدقه في البداية.. لكن.. مع ملامح الرعب على وجهه وسوء حالته النفسية.. تيقنت أن ما رآه حقيقي.. لقد تسلل ولدي في وقت متأخر من الليل إلى مقبرة (صبحان) مع صديق له.. إنها حماقة المراهقين وطيشهم كما تعلم.. فرأى هناك شيئا أثرى كوابيسه.. وأصبح بسببه يخشى الظلام كثيرا.. بل وبات يرفض البقاء وحيدا.. إنه ينام في غرفتي منذ ذلك الحين.. حتى دخوله الحمام أصبح مغامرة شاقة بالنسبة له لأنه سيدخله وحيدا بطبيعة الحال!!!.

أومأت برأسي دون أن أرد.. وطلبت من الأب أن يخرج من الغرفة لتكون لي جلسة خاصة مع ابنه كي يتحدث ويخبرني بقصته بنفسه.. سيكون هذا أفضل.. نظر إلي الأب دون اقتناع.. لكنه انصاع أخيرا وخرج من الغرفة بخطوات بطيئة وكأنه يتمنى أن أغير رأيي وأطلب منه العودة والجلوس.. إلا أنه خرج في النهاية.. وبقي الصبي جالسا على المقعد المقابل لمكتبي.

أحدق به للحظات محاولا أن أكون فكرة عن شخصيته.. فرأيت فتى نحيل الجسد.. عادي الملامح لا يختلف عن أي مراهق في مثل سنه.. علامات المراهقة تظهر عليه بوضوح.. الشارب الخفيف.. بثور بدأت تجد طريقها على وجنتيه.. له شعر طويل نسبيا تركه منسدلا بإهمال على جبينه.. لكن له ملامح متوترة قلقة أراها دوما وباستمرار على وجه كل شخص يدخل مكتبي.. كما لاحظت عليه آثار المعاناة وقلة النوم من خلال نظراته المرهقة.. لذا ابتسمت بود.. وطلبت منه أن يخبرني بقصته. ليقول بنبرة خجل وبصوت نصف خشن:

- لم أكن أريد زيارة مستشفى (المجانين)!!.. لكن أبي أصر على ذلك.

ابتسمت لكلامه الذي أسمعه دوما.. وقلت بلهجة أبوية:

- لا يوجد شيء اسمه مستشفى (المجانين).. إننا في مستشفى الطب النفسي.. الناس تكره هذا المكان بسبب السمعة على الأرجح.. لا تخش شيئا.. نحن نحافظ جيدا على سرية بيانات كل من

يدخل هذا المكان.

رد متنهدا:

- لا أعرف كيف سأخبرك بما حدث.. ربما لن تصدقني يا دكتور.. لكني لست واهما.. يستحيل أن يكون ما رأيته وهما!!.

غمغمت مبتسما:

- أخبرني بقصتك أولا.. وثق إنني سأكون إلى جانبك في كل الأحوال.

تنهد مرة أخرى.. ثم:

- لقد اشترى والدي مؤخرا بيتا في منطقة (الظهر).. فانتقلنا إليه منذ حوالي شهرين أو أكثر.. لم يكن الأمر ليغير الكثير في حياتي.. فقد بقيت في مدرستي في منطقة (القرين) القريبة وظللت على اتصال دائم بأصدقائي وزملاء الدراسة.

قلت باهتمام دون تعقيب على ما قاله:

- الأفضل أن تبدأ معي من الصفر.. أخبرني عن الوضع في البيت.. كيف تصف علاقتك بوالديك وأشقائك؟!!.

مط شفتيه ليقول:

- عادية للغاية.. فأنا أقضي معظم أوقات فراغي في غرفتي مع هاتفي.. وأخرج أحيانا مع أصدقائي.. أما أشقائي فلدي شقيقة صغيرة في السن تقضي معها والدتي معظم الوقت.. ولدي كذلك شقيقان أكبر مني سنا.. أحدهما يدرس في (بريطانيا).. والآخر متزوج حديثا ويقيم في شقة مع زوجته.. لكن.. سؤالك خارج الموضوع.. فالأمر يتعلق بابن جيراننا الذي تسبب بكل ما حدث!!!.

أشرت له بيدي أن يكمل.. ليقول بصوت مبحوح:

- بعد حوالي أسبوعين منذ انتقالنا إلى البيت الجديد واستقرارنا فيه تدريجيا.. كنت أجلس في غرفتي أقرأ إحدى القصص البوليسية في وقت متأخر من الليل مستمتعا بالإجازة الصيفية التي يصاحبها السهر في الغالب.. حين فوجئت بطرقات خفيفة على شباك غرفتي!!!.

سألته مباشرة:

- أين تقع غرفتك تحديدا؟!.

رد بسرعة:

- في الدور الثاني.. في الجانب الخلفي من البيت -أو في ظهر البيت كما نقول في (الكويت)- حيث يوجد هناك زقاق ضيق مظلم يفصل حيّنا عن بيوت الحي الآخر.. لقد أثار الصوت اهتمامي.. وكأن هناك من يقذف شباك حجرتي بحجارة صغيرة كي يلفت انتباهي.. نظرت مستغربا إلى الساعة.. فوجدتها تقترب من الواحدة والنصف فجرا.. توجهت بحذر إلى الشباك متوقعا ألا يتعدى الأمر بعض الأولاد المزعجين.. لكن.. فوجئت بوجود صبي بمثل سني تقريبا يقف وحيدا في ذلك الزقاق المظلم.. فتحت النافذة بحذر.. ليقول مباشرة بصوت هامس سمعته بصعوبة بسبب بعد المسافة: ((مرحبا بك في الحي.. أنا ابن الجيران!!!)).

نظرت إليه بدهشة.. ثم قلت:

- ش.. ش.. شكرا.. ولكن.. كيف علمت بمكان غرفتي؟ !!.. فضحك ليقول بهمس مسموع: ((لقد رأيتك منذ بضعة أيام من نافذتك هذه التي لا تغلق ستارها أغلب الأحيان.. إحم.. إحم.. المعذرة على هذه الطريقة الغريبة للقائك.. فأنا أعشق المغامرة.. ودائما أخرج من البيت في وقت متأخر من الليل أيام العطل دون علم والدي.. لأمشي في الأزقة المظلمة وأدخل البيوت المهجورة المتناثرة في منطقتنا باحثا عن الأشباح)).

قلت بشيء من الحيرة:

- ليست كل البيوت القديمة مسكونة بالأشباح.. فرد مبتسما ((علينا استكشافها للتأكد من ذلك.. ألا تتفق معي؟!.. تذكر أن الأشباح دائما تتواجد لو كانت هناك أمور لم تنتهِ بموت أصحابها!!.. عموما.. إنني أفعل كل ما يجعلني أعيش أجواء الغموض.. فهذه الحياة السرية جميلة.. خاصة وأن حياتنا بأكملها مجرد روتين.. حتى العطلة نفسها أصبحت روتين.. إنني أبحث عن التجديد.. هل تحب أن تشاركني؟!)).

قلت بحزم:

- المعذرة.. لا أستطيع الخروج من البيت في مثل هذا الوقت.. لن يسمح لي أبي أبدا. كدت أن أقول أيضا ما حذرني منه أبي ذات يوم.. حين قال لي: ((لا تجعل أصدقاءك يغيرونك إلى شخص آخر)).. لكني لم أقلها كون هذا الصبي ليس صديقي أصلا.. إلا أنه رد بسرعة أن والده لن يرحمه أبدا بدوره لو كشف خروجه المستمر من البيت في أوقات العطل.. فهو يخرج في وقت متأخر.. بعد أن يقوم بقفل باب غرفته من الخارج بالمفتاح.. ليظن الوالدان أن الفتى نائما بسلام.. في حين أنه خارج البيت.. ثم قال فجأة: ((لا بأس.. هل أستطيع أن أحصل على رقم هاتفك للتواصل معك على الأقل؟ !!.. ربما تسمح لي أن أزورك في البيت فيما بعد.. أو نخرج معا بدلا من اللقاءات الخفية هذه؟!.. صدقني.. ستستمتع كثيرا معي.. لست من صحبة السوء إن كان هذا ما تخشاه.. ولا أمارس أي أشياء محظورة)).. نظرت إليه بتحفظ.. ثم أخبرته برقم هاتفي النقال.. في الواقع لم أكن أرغب بهذا.. لكنه لم يمهلني فرصة للكذب أو اللف والدوران.. فابتسم بود وهو يحفظ الرقم في جهازه.. قبل أن يلقي علي تحية سريعة ليسير في الزقاق مبتعدا عن ناظري.

سكت طويلا.. ليكمل بحسرة:

- لقد بدا الأمر غريبا كما ترى.. فظللت ساعة أو ربما أكثر أفكر بما حدث.. لكن.. مع تأخر الوقت.. شعرت بالنعاس وأن جفنيّ يثقلان.. فأطفأت الأنوار استعدادا للنوم ظنا أنني سأنسى تلك الحادثة الصغيرة في الغد.

قلت مستغربا:

- مهلا.. يقول والدك إنك رأيت شيئا في المقبرة أصابك بالذعر.. لم تتحدث عن تلك النقطة بعد.

رد بأدب:

- لم نصل إلى ذلك الجزء حتى الآن.. كنت أقول إنني نسيت كل ما يتعلق بتلك الحادثة.. لكن بعد أيام قليلة.. تلقيت من الصبي اتصالا هاتفيا يطلب فيه قضاء بعض الوقت معي.. فأخبرته

صراحة وبشيء من الحرج أن يتركني في حالي.. فلا مكان في حياتي لأصدقاء جدد.. ليرد بصوت حزين أن صداقاته محدودة.. كون كل أبناء الجيران إما صغارا في السن أو أكبر منا سنا.. كما أن علاقاته مع زملاء الدراسة لا تتجاوز أسوار المدرسة على حد قوله.. ثم راح يتحدث بألم وحسرة عن نفسه وعن الخلافات الأسرية التي تعصف ببيتهم ومغامراته التي يراها متنفسا له من هذه المعاناة.. حتى شعرت بشيء من الشفقة والألفة تجاهه.. أما أنا فتحدثت بدوري عن نفسي وعن ميولي.. وأخبرته إننا نتشابه في عشقنا للغموض والقصص البوليسية.

انتهى من كلامه.. وجرع من كوب الماء الذي طلبته له.. ليكمل:

- لقد تحدثنا أكثر من ساعتين.. وأثارني كثيرا كلامه عن مغامراته في البيوت المهجورة في منطقة (الظهر) والصور التي التقطها هناك.. فكما تعلم يا دكتور.. جميع عشاق القصص البوليسية يظنون أن كل بيت مهجور يحوي وراءه لغزا ما.. أو كنزا مفقودا.. لذا فقد أحببت هذا العالم السري الذي يعيشه صديقي الجديد.. ليذوب الجليد بيننا سريعا على عكس ما توقعت.

سكت طويلا وهو يعض على شفتيه ندما دون أن أفهم السبب.. ثم أردف:

- سارت الأمور بشكل جميل للغاية.. حتى إنني اتفقت معه على زيارتي في اليوم التالي لنجلس معا في ديوانية البيت.. فأسعدته دعوتي كثيرا.. ليزورني ونقضي بعض الوقت معا حيث دارت بيننا أحاديث شيقة حول كل اهتماماتنا.. ولم يرحل إلا بعد أن توطدت صداقتنا سريعا.. خاصة بعد أن وافقت على مرافقته لزيارة أحد تلك البيوت المهجورة.. لماذا؟!.. لأنني أحب أن أخاف.. ولا أرى هذا غريبا.. جميعنا نحب أن نخاف أحيانا.. لهذا نشاهد أفلام الرعب ونركب الألعاب المخيفة في مدن الملاهي.. بل وأعترف أنني كنت أستمتع في طفولتي عندما أطفئ إضاءة الطابق الأرضي وأصعد الدرج بسرعة إلى الطابق الثاني خوفا من الأشباح.. دعك من متعة استكشاف المجهول.

قلت متعاطفا:

- لا تلم نفسك أبدا يا عزيزي.. من المفترض أصلا أن يقوم صبي بمثل سنك بأمور كهذه.. إنها طبيعة المراهق.. تجربة كل شيء وكسر القوانين بأي طريقة.. فالهرمونات والتقلبات النفسية تفعل فعلها معكم.. عليك فقط الاستفادة من هذه الأخطاء والمضي قدما.. هه.. ماذا حدث بعدها؟!.

نظر إلي بامتنان.. ثم:

- مرت بضعة أيام تحدثنا فيها عبر الهاتف والتقينا خلالها أكثر من مرة.. إلى أن قررنا الخروج في تلك الليلة المشؤومة لزيارة بيت مهجور قريب نسبيا من بيتنا.. حيث أعددت العدة للخروج في وقت متأخر دون علم أحد.. إذ شحنت هاتفي.. وقمت بتجهيز ثيابي الخفيفة التي سأرتديها.. شاعرا أنني على وشك زيارة عالم جديد واكتشاف شيء لا أعرف ما هو.. لكني سأكتشفه فحسب!!!.

ازدرد لعابه وهو يكمل:

- فعلت ليلتها تماما ما يفعله ابن جيراننا حين يتسلل خارجا من بيته كل مرة.. ففي الساعة الواحدة فجرا.. وبعد أن تأكدت من نوم والديّ وعدم وجود أحد مستيقظ في البيت.. قمت بإغلاق باب حجرتي وأقفلته بالمفتاح من الخارج.. ثم توجهت إلى خارج البيت بحذر.. ستكون

كارثة لو كشف أحد خروجي في مثل هذا الوقت.. لذا كنت متوترا للغاية.. ورغم أن حرارة الجو لا تطاق.. إلا إنني لم أشعر بأي ضيق حين خرجت.. فقمت بالسير قليلا للالتفاف حول الحي متجها إلى ذلك الزقاق الضيق خلف البيت.. لأجد صديقي الجديد ينتظرني هناك.. صافحته بحرارة.. ورحنا نتحدث بهمس غير مقصود حول أمور كثيرة محاولا تجاهل شعوري بالخوف من أن يكشف أبي خروجي.. ليخبرني صديقي فجأة عن تغيير بسيط في الخطة.. وعزمه على خوض مغامرة جديدة من نوعها.. زيارة مقبرة (صبحان) القريبة من منطقتنا!!!.. على اعتبار أن فرصة العثور على أشباح هناك ستكون أكبر.

سألته بدهشة:

- وهل وافقت؟!.

بدا سؤالي غبيا كوننا نعلم أن الفتى رأى شيئا في المقبرة جعله يأتي لزيارتي.. لكنه لم ينتبه لغباء السؤال.. بل قال برهبة:

- لقد فوجئت بهذا الطلب.. فانعقد لساني للحظة.. لكن.. بعد حديث لبضع دقائق ومحاولات سريعة لإقناعي.. وافقت!!!.. ووجدتها تجربة لا بأس بها.. فوجود الصحبة الآدمية سيبدد مخاوفي من السير بين القبور في هذا الوقت المتأخر.. ولا ننسى أن مقبرة (صبحان) قريبة للغاية من منطقتنا كما تعلم.

كنت أنظر إلى الفتى والتساؤلات لا تتوقف.. ما الذي رآه في المقبرة وسبب له كل هذه الكوابيس يا ترى؟ !!.. ويبدو أنه لاحظ انتباهي الشديد.. إذ أعطاه هذا شيئا من الحماس غلب التوتر الذي سيطر عليه.. ليكمل:

- بدأنا رحلتنا.. ومشينا بين ممرات البيوت والأحياء قرابة نصف ساعة.. أنظر إلى شاشة هاتفي لأجد الساعة تجاوزت الواحدة والنصف فجرا.. نعبر الطريق السريع الذي يفصل بين منطقة (الظهر) ومقبرة (صبحان).. الشوارع شبه خالية.. إلى أن وصلنا أخيرا إلى سور المقبرة.. ليتسلقه صديقي مباشرة دون تردد.. فاستجمعت شجاعتي وتبعته بدوري لأجد نفسي أخيرا في المقبرة..

أنرت المصباح الموجود في هاتفي.. وصوبت حزمة الضوء إلى الأمام.. لأصطدم بذلك المنظر الكئيب.. شواهد القبور على مد البصر لأناس عاشوا بيننا ورحلوا حتى نسينا أنهم وُجدوا في هذا العالم أصلا!!.. لا أنكر أن الشعور بالخوف بدأ يتملكنا.. لكن صديقي حاول قتل مخاوفه حين بدأ يلتقط الصور وهو يسير ببطء بين القبور على اعتبار أن الصور قد تظهر ما لا نراه من أشباح كما يقال دوما.. ويبدو أن الخوف لو وُزّع على اثنين يكون أقل رعبا.. إذ شعرت ببعض الشجاعة وفعلت الشيء ذاته مستمتعا بهذه المغامرة.. ثم.. بعد دقائق قليلة.. شهق صديقي فجأة.. وتسمر في مكانه وهو يشير إلى نقطة بعيدة لكيان مخيف يسير بين القبور بهدوء!!!!.

سكت الصبي وهو يشهق.. وكأنه يعيش تلك اللحظة المخيفة مرة أخرى.. أما أنا فتحفزت حواسي منتظرا منه أن يكمل.. ليقول بانهيار:

- لا يمكن أن تصدق لحظات الخوف التي عشتها.. لقد كدت أطلق ساقي للريح.. لكن صديقي أمسك ذراعي بصوت مرتجف متوتر وهو يقول: ((انتظر.. أرجوك.. لو هربنا الآن فسنندم ونحترق بنيران الفضول طوال العمر.. دعنا نعرف هوية الشيء القادم ناحيتنا على الأقل.. تذكّر ما يقال دوما.. الأشباح لا تؤذي سوى المعنويات)).. حسنا.. أنا لم أسمع هذه المقولة من قبل..

لكنها بدت منطقية.. فازدردت لعابي بتوجس وانتظرنا معا ذلك الكيان الذي يمشي ناحيتنا بثبات وقد نسينا تماما أمر التقاط الصور.. الخيال يلعب دوره ويضخم الأشياء ليجعلها أكثر رعبا وغرابة.. ملامحه تظهر لنا تدريجيا وهو يقترب!!!.. إنه شبح.. شبح لرجل عجوز قصير القامة ذي لحية بيضاء طويلة.. لقد رأيته جيدا رغم الظلام وهو يمشي ناحيتنا بهدوء.. أعتقد أنك حين تكون خائفا.. فإنك ترى بشكل أفضل.. وربما هذا ما جعل صديقي يشهق ويفقد كل ذرة تعقل لديه.. ليطلق ساقيه للريح وهو يصرخ.. فتبعته مباشرة وأنا أصرخ بدوري كالمجنون.. نركض ونركض بين القبور دون توقف متجهين ناحية السور.. لكني -ومن شدة الذعر- تعثرت وسقطت ليرتطم رأسي بأحد شواهد القبور!!!.

قالها وهو يرفع شعره لأرى الجرح على جبينه والغرز التي أغلقته.. ثم أكمل:

- شعرت حينها أن الدنيا تدور بي.. وأن سائلا لزجا ينزل على عيني ويمنعني من النظر حولي بصورة جيدة.. فأدركت أن جبهتي تنزف.. التفت باحثا عن صديقي.. لأجده جالسا على الأرض بدوره عند أحد القبور وكأنه وقع أيضا وتعرض لإصابة ما!!.. هذا متوقع.. من العسير أن تركض هلعا دون تركيز بين القبور ليلا دون أن تتعثر بأحد شواهدها.. شعرت بوهن شديد.. فظللت في مكاني عاجزا عن النهوض.. والرعب يمنعني من فقدان وعيي!!!.. ثم.. وجدت أحدهم يقف بالقرب مني وينظر إلي بفضول.. كان هذا.. كان هذا.. الشبح القصير بلحيته الطويلة!!!!.. كدت أصرخ.. لكن مظهره المخيف أخرسني تماما.. ليحدث ما لم أتوقعه إطلاقا!!.

سكت قليلا وهو يلهث بعد حديثه الطويل.. فقلت بلهفة:

- ماذا حدث؟!.. أكمل بالله عليك!!.

أجهش في البكاء فجأة وهو يقول:

- انحنى الشبح ليساعدني.. واتضح بعد لحظات قليلة كدت أموت فيها رعبا أنه لم يكن سوى حارس المقبرة!!!.. لقد خدعنا مظهره ولحيته البيضاء الطويلة.. إذ اتضح أنه اعتاد السير بالقرب من القبور بين الحين والآخر للتأكد من عدم وجود متطفلين.. وراح يسألني عن سبب وجودي هنا في مثل هذه الساعة.. بالطبع هدأ هذا من روعي كثيرا.. خاصة حين أخرج لي منديلا من جيبه وهو يساعدني على النهوض ويمسح الدماء التي ملأت جبيني.. حيث تبين أن الجرح بسيط كما ترى.. لكن الدماء التي غطت وجهي -مع مشاعر الخوف- جعلتني أظن أنني مصاب بجرح غائر.. وقد ظننت أن القصة انتهت عند هذا الحد وأنها مغامرة طريفة سأقصها على أصدقائي يوما.. إلى أن التفت باحثا عن صديقي.. ليخبرني حارس المقبرة باستغراب أنه لم يكن هناك أحد برفقتي أصلا حين رآني!!!!.. فأقسمت له أنني كنت مع صديقي.. ورحت أصرخ مناديا وأهرع إلى القبر الذي وجدت صديقي واقعا عنده قبل قليل.. أين ذهب؟!.. أنا لا أراه.. و.. لا أعرف السبب الذي جعلني أسلط ضوء مصباح هاتفي -الذي تلوث غطاؤه بالأتربة- على شاهد القبر.. لأصرخ وأبدأ كالمجنون أبسمل وأقرأ المعوذات وقد تجهمت ملامحي.. فقد قرأت اسم صديقي كاملا على شاهد القبر.. مع تاريخ الوفاة منذ سنة تقريبا!!!.. لا يمكن أن تكون هذه صدفة.. نعم.. لقد كان صديقي هو الشبح وليس العجوز حارس المقبرة!!!.. تخيل أنني كنت طوال الوقت مع شبح دون أن أعلم.. والمصيبة أنني أدخلته بيتنا يوما.. قلت هذا الكلام للحارس فتجهمت ملامحه وراح بدوره يبسمل ويذكر المعوذات وإن كنت رأيت نظرات الشك على ملامحه.

ساد المكان صمت مهيب سوى من دموع الصبي وتنهداته.. أما أنا فقد جف حلقي وانتصبت الشعيرات على ساعدي.. أحاول أن أفكر بشكل علمي أمام هذه القصة المخيفة.. قبل أن أكسر حاجز الصمت وأقول بصوت مرتبك:

- ما أدراك أنك لم تكن واهما؟!.. ألم يلتقِ أي من أفراد عائلتك بصديقك هذا حين زارك في بيتك؟!.. ألم تلمسه؟!.. ألم تشعر بشيء حين صافحته؟!.. والأهم من كل هذا.. رقم هاتفه!!.. تقول إنك تواصلت معه هاتفيا أكثر من مرة.. أليس كذلك؟!.. هل جربت الاتصال بالرقم؟!.

رد بعصبية وهو يمسح دموعه:

- أرجوك لا تشكك في قصتي.. كل ما قلته لك حقيقي تماما.. لقد جلست معه في ديوانية البيت ذات مرة كما قلت لك.. لكنه لم يلتقِ بأحد من أفراد أسرتي.. حتى لقاءاتنا القليلة التالية كانت في الخارج.. ومعظمها عند السوق المركزي التابع لمنطقتنا.. لقد عدت إلى البيت ليلتها وأنا أصرخ وأبكي برعب.. أتذكر أنني قرأت يوما أن الإنسان يكذب حين يكون خائفا.. أما أنا فعلى العكس.. خوفي جعلني أقول لأبي كل شيء.. ولحسن الحظ لم يعاقبني على تسللي خارج البيت في هذا الوقت المتأخر.. فالجرح الموجود في جبيني.. وثيابي المبعثرة التي اختلطت بالعرق والتراب.. والخوف الذي بدا علي.. كل هذا كان كصك الغفران.. وقد تأكد أبي من قصتي فيما بعد حين علم بتعرض فتى في الحي المقابل لحادث سير منذ سنة تقريبا توفي على إثره مع شقيقه الذي كان يقود السيارة.. أما عن النصف الثاني من سؤالك.. فقد صافحته بالفعل.. وبدا لي كل شيء عاديا حينها.. لكن.. أتذكر الآن أن يده كانت باردة إلى حد ما.. حتى وجنتيه كانتا كذلك.. يا إلهي.. هل هذا يعني إننا نستطيع لمس الأشباح أحيانا؟ !!.. أعتقد أن الجواب هو.. نعم!!.. سألتني أيضا عن رقم هاتفه.. لقد طلبت الرقم بالفعل.. ووجدت أنه رقم لم يستخدم أبدا!!.. بل وأكد ذلك قريب لي يعمل في شركة الاتصالات.. فكيف تفسر كل هذا؟!.

ساد الصمت مرة أخرى.. الفتى يأخذ منديلا ليتمخط فيه.. ثم يكمل:

- إنني أعيش كوابيس لا تصدق.. لقد ظننت أن الرجل الموجود في المقبرة هو الشبح.. لكن اتضح العكس.. كنت أنا برفقة الشبح طوال الوقت دون أن أعلم.. وقد دعوته إلى بيتنا ذات يوم.. هذا مخيف.. مخيف!!!.

انتهى الصبي من قصته.. ولم ينته ذهولي.. حقا هناك الكثير من العجائب في هذا العالم.. خاصة فيما يتعلق بقصص الأشباح.. فالقصص المتناثرة حولها تملأ الكتب والمجلدات في جميع بلدان العالم دون أن نعلم مدى صحتها.

ربما يرى بعضكم أن الولد كاذب وقد قام بتلفيق القصة كاملة كي يتجنب عقاب والده.. لكني بصراحة لا أرجح هذا الاحتمال.. إذ لم يبدُ لي من كلامه أنه يكذب أو يمثل.. لقد كان خائفا بالفعل.

يبقى هناك سؤال هام.. لو كانت القصة حقيقية.. فلماذا فعل الشبح كل هذا أصلا؟!.. لا أعلم.. فالأشباح لا تتصرف أبدا بعقلانية كما نقرأ دوما في القصص.. على كل حال.. هذه هي القصة باختصار.. وتبقى على الأرجح من أغرب القصص التي مرت علي كطبيب نفسي.. وسيكون علي قضاء بعض الوقت مع هذا الصبي وإخضاعه لعدة جلسات كي أساعده على طي تلك الصفحة المخيفة من حياته.. وتلك الليلة التي عاش أحداثها المروعة.. في المقبرة!!!.

الفخ!!

لن تكف وسامتي أبدا عن إبهار الفتيات!!.. هذا ما أردده لنفسي باستمرار.. لا أقولها من باب الغرور.. بل هو الواقع.. حتى إن الكثيرات تساءلن صراحة.. ما الذي ينقصني لأكون سعيدا؟!.. ولا ألومهن على تساؤلاتهن هذه.. فأنا أبدو كالأبطال المقاتلين في الأساطير الرومانية بعضلاتي المفتولة بلا تكلّف والتي تبدو وكأنها منحوتة نحتا.. مع قوامي الفارع.. ولساني الآسر بدعاباتي خفيفة الظل كما يراها الجميع.

ورغم إنني في أوائل العشرين من العمر.. إلا أن وسامتي هذه ساعدتني على المرور بمغامرات عاطفية عديدة أعجز حتى عن تذكر عددها.. فقد انتبهت إلى السحر الخاص الذي أمتلكه منذ سن المراهقة ربما.. حين كنت أستغل الفتيات خير استغلال.. فأحصل على هاتف نقال من فتاة.. أو ساعة ثمينة من فتاة أخرى.. ثم أتركهن ليضربن رؤوسهن بالحائط.

ومع مرور الأيام.. كبِرت وكبرت معي احتياجاتي بطبيعة الحال.. وأدركت مبكرا تلك الحقيقة التي يغفل عنها معظم الشباب.. وهي أن الشهادة والوظيفة لن تحققا لي طموحي بالحصول على سيارة الأحلام أو السفر متى ما أردت على الدرجة الأولى.. إلخ من وسائل الرفاهية التي يتمناها الجميع.. لذا لم أجد في نفسي الرغبة في الالتحاق بالجامعة حين أنهيت دراستي الثانوية.. خاصة مع معدلي الدراسي المتدنِّ.. وهذا ما جعلني أسعى خلف المال مستغلا موهبتي الوحيدة.. الوسامة وسحر الشخصية.. من خلال استدراج الأرامل والمطلقات وإيقاعهن في حبائلي.. خاصة الثريات منهن واللاتي ليس لهن نصيبا من الجمال ولا أمل في الزواج مرة أخرى.. إذ كنت أضرب ضربتي وأحصل منهن على مبالغ كبيرة.. ثم أنهي علاقتي بهن بطريقة صادمة والحق يقال.

وقد كانت البداية في إحدى المؤسسات الحكومية.. حين ذهبت لإنجاز معاملة والتقيت هناك بموظفة في منتصف الأربعين من العمر.. إذ تمكنت من تمييز اسم عائلتها حال تقديم نفسها إلي.. كونها واحدة من العائلات الثرية في (الكويت).. حتى إنني فوجئت أن تكون امرأة كهذه موظفة في جهة حكومية.. أتذكر إننا تحدثنا يوما عن أمور عامة.. ودخلنا شيئا فشيئا في بعض الأمور الشخصية.. كالهوايات وكيفية تمضية أوقات الفراغ.. حين أخبرتني بما توقعته.. وهو أنها لا تحتاج الراتب أصلا.. وإنما تعمل من أجل قتل الوحدة ووقت الفراغ فحسب.. كونها مطلّقة وولديها يدرسان في الخارج.. ولا تفكر بالزواج أبدا!!.

هذا ما قالته.. لكن الواقع يقول إنها تتمنى الزواج ولا تناله.. إذ كانت أبعد ما تكون عن الجمال.. وهذا تحديدا ما جعلني أخرج من مكتبها بعد أن حصلت على بطاقة عملها وأنا أفكر باستغلال وسامتي أكثر بكثير مما كنت أفعله في سنوات المراهقة.. فهذه السيدة لن تحلم بشاب مثلي.. لذا قررت بناء علاقة جادة معها في الظاهر.. على أن أنال ثقتها لأضرب ضربتي وأقطع صلتي بها فيما بعد.. فاتصلت بها في اليوم التالي.. وتبادلت معها أطراف الحديث قبل أن أخبرها بإعجابي الشديد وأتغزل بلباقتها وأناقتها.. وأنني لا أستطيع نسيان لقاؤنا في الأمس.. ومن ذلك الهراء الذي يقوله المحبين.

في البداية صُعِقَت بالطبع.. ولم تتوقع أن ينظر لها شاب مثلي بتلك النظرة.. ثم رفضَت بخجل مصطنع وكأنها تبين لي أنها ليست صيدا سهلا.. لكنها -وبشيء من الإلحاح- وقعت في حبائلي..

وتمكنت من خداعها بعد علاقة استمرت شهورا قليلة.. فحصلت منها على 20 ألف دينار بعد أن أخبرتها أنني في مأزق مالي وأحتاج مساعدتها.. لأقطع علاقتي بها بعد أيام قليلة وسط دموعها وسخطها ولعنها لغبائها. أعترف أنني دائما أنهي علاقاتي بضحاياي بهذه الطريقة القاسية.. ولحسن الحظ فإن معظمهن نساء كبيرات في السن ومن عائلات محترمة وثرية كما ذكرت في البداية.. لذا يجدن أنفسهن في حرج بالغ بعد أن أكشف حقيقتي لهن.. فالواحدة منهن لا تستطيع تحذير الناس مني وفضح نفسها وعائلتها.. ولا تستطيع أيضا تقديم شكوى بحقي كونها سلمتني المال بكامل رضاها دون أي إثباتات.. لتستسلم في النهاية وتركن في زاويتها درءا للفضيحة محاولة أن تنسى الموضوع وهي تعض على شفتيها قهرا.

رحت بعدها أمارس عمليات النصب بثقة أكبر بين الحين والآخر.. موقعا سيدات أعمال أخريات في حبائلي ومن ثم الحصول على مبالغ كبيرة منهن وصلت أحيانا إلى 40 ألف دينار!!.. ولكن.. مهما كنت حقيرا استغلاليا بنظركم.. أبقى في النهاية بشرا.. من الممكن أن أحب.. وأن يتعلق قلبي بفتاة يوما ما!!.

كان هذا حين التقيت ب. (غزلان).. فتاة رائعة أشعرتني لأول مرة أن وسامتي لن تفلح بجذب انتباهها.. فهي نحيلة سمراء البشرة نسبيا.. لها شعر أسود طويل تستطيع أن تقول فيه قصائد غزل دون ملل.. ووجه متناسق جميل وكأنه صورة تم تعديلها ببرنامج كمبيوتر!!!.

لقد التقيت ب. (غزلان) صدفة في مقهى (كوستا) بمنتجع (صحارى).. حين كانت تجلس على طاولة قريبة مني ممسكة ببعض الأوراق والكتب.. فتقرأ وتكتب بعناية دون أن تنتبه للنظرات المبهورة التي تحدق بها بإعجاب.. وهذا ما جعلني أجلس مكتويا في مكاني أترقب خروجها كي أتبعها وأحاول التحدث إليها خوفا من إحراجها لو فعلت ذلك أمام الناس.

وبعد أكثر من ساعة من تواجدها في المقهى.. نهضت لتلملم أوراقها.. ثم خرجت دون أن تلتفت لأحد.. فنهضت بدوري لأتبعها بخطوات سريعة إلى سيارتها.. وهناك.. تنحنحت وأنا أنظر إليها بابتسامة واسعة محاولا كسب ودها.. لكنها لم تلتفت إلي.. ففتاة كهذه لن تهزها كثيرا وسامة شخص مثلي.. إنها تريد ما هو أكثر من الوسامة بكثير.. هذا ما قلته لنفسي وأنا أراها تركب سيارة باهضة الثمن يندر أن تراها في الشارع.

في النهاية.. رحَلَت وأخذت قلبي معها.. فظللت واقفا أحدق بسيارتها بشيء من الألم وهي تبتعد عن ناظري.. لأذهب بدوري إلى سيارتي متخاذلا حزينا شاعرا أنني لا أستحق فتاة مثلها.. لكن لو استحققتها.. فسأحبها كما لم يحبها إنسان في هذا العالم.. تتردد تلك الكلمات في ذهني أثناء عودتي إلى البيت آملا أن أنسى كل ما يتعلق بهذه الفتاة مع مرور الأيام.. فجميعنا معشر الشباب نجد فتاة باهرة الحسن بين الحين والآخر ونظن أننا لن ننساها أبدا.. إلى أن نصادف فتاة أخرى تنسينا الفتاة السابقة.. وهكذا.

لكن.. هذا لم يحدث معي.. إذ صادفت (غزلان) مرة أخرى في نفس المقهى والذي تبين أنها تتردد عليه باستمرار.. مما منحني الأمل في الفوز بقلبها.. فالمرة الأولى قد لا تجدي غالبا مع فتاة كهذه.. لكن استمرار المحاولات والمطاردات قد يسفر عن شيء.. هذا ما كنت أقوله لنفسي.. خاصة بعد أن رأيتها هناك للمرة الثالثة.. والرابعة.. و.. شيئا فشيئا.. بدأت الفتاة تلتفت لي.. وتحدثت إلي أول مرة لتسألني بشيء من الحدة عما أريده منها وعن سر مطاردتي المستمرة لها.. فأخبرتها بحماس أنها أجمل من الجمال نفسه.. وأنها أكثر رقة ونعومة من أجمل زهرة على

كوكب الأرض.. بل رحت أتحدث وأتحدث بتأثر وبلا انقطاع عنها وعن حسنها الذي أسرني.. إلى أن رضخت لي أخيرا.. وأخذت رقم هاتفي على أن تتصل بي مباشرة بعد أن تركب سيارتها.. وبالفعل.. اتصلت بي لحظتها.. وبدأت القصة.. قصة حب لم أظن يوما أنني سأعيشها.

أصدقكم القول أنني شعرت للحظة أن (غزلان) تريد خداعي بشكل أو بآخر.. ربما بسبب تاريخي الطويل في خداع النساء مما جعلني لا أثق بأحد.. لكن.. ما الذي أملكه أصلا ليغري فتاة ثرية كهذه ويجعلها تطمع بي؟!.. هل هي نصابة أيضا وقد حصلت على سيارتها بنصبها على

الأثرياء؟!.. لا.. لا يمكن أن تصل الصدف إلى هذا الحد.

استمرت علاقتي ب. (غزلان) وازدادت ترابطا بهدوء محبب إلى النفس.. إذ عرفت فيها أنها تصغرني بعامين تقريبا.. تدرس العمارة في جامعة (الكويت).. وتنتمي لعائلة ثرية جدا كما هو متوقع.. فوالدها رجل أعمال يمتلك سلسلة مطاعم شهيرة.. وقد أشعرني كلامها أنني محظوظ ووقعت على كنز لا يمكن أن أتخلى عنه.. أما أنا فأخبرتها صراحة أنني شاب بسيط اكتفيت بدراستي الثانوية.. وأنني أنتمي لأسرة عادية جميع أفرادها يعملون في وظائف حكومية بسيطة.. إلا أنني إنسان عصامي نجحت في بناء نفسي.. وجمعت مبلغا محترما من.... من خلال سوق الأوراق المالية!!!.. فلا يمكن أن أخبرها بالطبع عن عمليات النصب السابقة.. وقد كانت فخورة بي وبكفاحي على حد قولها.. مما جعلها تتعلق بي وتحبني كما أحببتها.. وربما أكثر.. الرائع في هذه الفتاة أنها تشعرك أن الكون كله قد توقف من حولك.. وأن النجوم صارت بين يديك.. وكأنها حلم أجمل من أن يتحقق.. و.. لم أكن مخطئا في كلامي هذا.. فقد كانت حلما أجمل من أن يتحقق بالفعل!!!.

حدث التحول المخيف في قصتي بعد مرور شهور قليلة على علاقتنا وقد ازداد تعلقنا ببعض حتى بت لا أطيق فراقها.. عندما اتصلت حبيبتي (غزلان) ذات يوم لتخبرني أنها ذاهبة مع أقاربها إلى شاليه العائلة في عطلة نهاية الأسبوع.. إذ طلبت مني استئجار شاليه قريب منهم كي نلتقي هناك سرا ونقضي بعض الوقت معا في وقت متأخر من الليل دون علم أهلها.. بل ومنحتني رقم صاحب شاليه قريب منهم مخصص للإيجار حصَلَت عليه من خلال اللافتات الإعلانية المتناثرة في كل مكان هناك.

لا يمكن أن يتصور أحد السعادة الغامرة التي سيطرت علي حينها.. لم تكن المرة الأولى التي أقابل فيها حبيبتي.. لكن أن أكون معها على شاطئ البحر في أجواء حميمة منعزلة عن العالم وفي هذا الوقت من شهر (فبراير).. إنها لحظات يحلم بها جميع المحبين.. هواء مالح المذاق.. ثياب شتوية ثقيلة.. ويدك الباردة التي لا يدفئها سوى احتضانها ليد حبيبتك وأنت تتبادل معها عبارات الغزل والحب.

وافقت دون تردد.. وقمت مباشرة ببقية الإجراءات خلال يومين فحسب.. فدفعت ثمن قضاء ليلتين في ذلك الشاليه وحصلت على المفتاح.. حيث قررت الذهاب وحيدا.. فمعظم أصدقائي المقربين من طرازي مع الأسف.. جميعهم نصابين بشكل أو بآخر.. لذا قررت الابتعاد عنهم جميعا والبدء بحياة مستقيمة منذ أن وقعت أسيرا لغرام (غزلان).

في اليوم الموعود.. أبلغت والدتي وأشقائي أنني ذاهب إلى الشاليه برفقة بعض الأصدقاء وسأبيت هناك ليلتين.. ولم يلفت هذا انتباه أحد.. فقد اعتادوا غيابي المتكرر من البيت وإن كانوا يجهلون تماما الأنشطة المشبوهة التي قمت بها سابقا.. فأنا أخشى دوما مشاركة الناس أسراري

كي لا يستغلها أحدهم ضدي.. هذه قاعدة عامة يعرفها كل من يزاول النصب.. وقد يظن البعض إن أفراد العائلة لا يغدرون.. لكني أقولها صراحة.. حتى أقرب الناس إليك قد يطعنك في ظهرك.. فالعشرة لا علاقة لها بمعدن الناس.

المهم.. وصلت يومها إلى الشاليه والساعة تتجاوز السادسة مساء بقليل.. حيث بدا فخما مؤثثا بالكامل يحوي كل ما يمكن أن تحتاجه.. هذا ليس غريبا بعد المبلغ الفادح الذي دفعته عن طيب خاطر لصاحب الشاليه.. كما عرفت من حبيبتي من خلال رسالة هاتفية أنها موجودة حاليا في شاليه عائلتها وستكون قادرة على الخروج للقائي في الموعد المحدد.

مرت الساعات مملة باردة رغم محاولاتي لقتل الوقت من خلال مشاهدة التلفاز والعبث في هاتفي.. ثم.. قررت الخروج للتنزه قليلا على البحر واستكشاف المكان حولي رغبة في قتل الوقت.. كان الطقس شديد البرودة.. ولولا الثياب الثقيلة التي أرتديها لتجمدت بردا.. فوضعت يديّ في جيب المعطف.. ورحت أمشي وأنا أردد كلمات إحدى الأغاني الشهيرة التي تتحدث عن لقاء حبيبين بعد غياب طويل.. مهلا.. ما هذا؟ !!.. توقفت الأغنية في عقلي حين لاحظت شخصا يجلس بالقرب من شاطئ البحر.. لا أرى جيدا بسبب الظلام.. هل هو رجل.. أم امرأة؟!.. إنها امرأة.. امرأة تبكي بحرقة.. كان صوت البكاء واضحا.. نظرت حولي فلم أجد أحدا آخر.. اقتربت منها وتنحنحت قبل أن أسأل:

- عفوا.. هل أنت على ما يرام؟!.

التفتت إلي بجزع وكأنني فاجأتها بوجودي.. فنهضت من مكانها وراحت تمسح دموعها وهي تسألني بشيء من الحدة:

- ماذا تريد؟!!.

أمعنت النظر في ملامحها جيدا.. إنها امرأة بدينة في أواخر الثلاثين أو أوائل الأربعين من العمر وقد زادت الثياب الشتوية الثقيلة مظهرها بدانة.. لها شعر أسود طويل مبعثر وأسنان بارزة نسبيا.. وترتدي نظارة سميكة.. باختصار.. كانت قبيحة.

سألتها مرة أخرى إن كان هناك ما يمكن تقديمه لها.. فوقعت على الأرض أمام عيني المذهولتين وانهارت باكية مرة أخرى!!!.. اقتربت منها وأنا أنظر حولي.. ثم قلت بتوتر:

- سيدتي.. هل أنت بخير؟!.

انفجرت فجأة لتصيح:

- الوغد.. الحقير.. تحملت سخافاته سنوات طويلة.. تحملت عقمه وعدم إنجابه وضحيت بأغلى ما يمكن أن تضحي به زوجة.. وها هو الآن يتركني بعد أن وجد الحب الذي يبحث عنه في (لندن) وتزوج من حبيبته الإنجليزية اللعينة.

وقفت مشدوها مصدوما وأنا أسألها:

- ماذا.. ماذا أستطيع أن أفعل؟!!.

نظرت إلي بعينين دامعتين وهي تقول:

- لا أعلم.. لا أعلم.. هيييييييييه!!!.

لم يكن من اليسير تركها هكذا.. فقمت بالجلوس بجانبها وحاولت تهدئتها ومواساتها بالكلمات المعتادة أن العالم لن ينتهي بسبب هذه المأساه وأن عليها الاستفادة من هذه التجربة السيئة.. فأفضل النصائح تلك التي نأخذها من أسوأ تجاربنا.. ومن هذا الهراء الذي نقوله دوما عن قصص الغدر والخيانة.. وأخبرتني بدورها أنها جاءت هنا مع صديقاتها على أمل أن تنسى ما حدث.. لكنها لم تستطع أن تشاركهن الحديث واللهو.. وشعرت برغبة قوية في البكاء.. فتركتهن في الداخل وخرجت لتفرغ دموعها. عرضت عليها بعد ذلك أن أمشي معها إلى الشاليه الذي تقطنه.. لتوافق بأسى.. فنهضنا من مكاننا وقمنا بتنظيف ثيابنا من الرمال التي علقت بها أثناء جلوسنا.. ثم مشيت بجانبها وأنا أكمل حديثي عن التفاؤل لرفع معنوياتها.. إلى أن وصلنا لمقر إقامتها.. فشكرتني على ما فعلته من أجلها.. لتتركني مودعة وتذهب في حال سبيلها.. هكذا هي الدنيا.. هناك دائما ضحايا.. المهم ألا تكون أنت الضحية!!!.

عدت إلى الشاليه.. وقضيت الوقت أشاهد إحدى المباريات.. إلى أن حانت الساعة الموعودة.. قبل منتصف الليل بقليل.. حين اتصلت حبيبتي (غزلان).. واتفقنا على اللقاء عند الشاطئ بالقرب من مكان إقامتي.. فجلست في الخارج أنتظر وأستمع لصوت أمواج البحر بهيام.. ألتفت بين الحين والآخر مترقبا حضورها.. إلى أن رأيت جسدا جميلا يخفي الظلام ملامحه يخرج من شاليه قريب نسبيا متجها ناحيتي.. لا يوجد جسد رقيق كجسدها.. ولا شعر طويل ثائر يحركه هواء البحر كشعرها.. إنها هي بالفعل.. خفق قلبي بشدة عند رؤيتها.. ولم أتمالك نفسي.. إذ

أمسكت يدها بقوة وبشكل مفاجئ دون أن أنطق.. وكأنها المرة الأولى التي أقابلها فيها وأرى فتنتها.

ثم رحنا نسير على الشاطئ بمنظر شاعري للغاية.. مبتعدين قليلا عن الشاليهات المحيطة بنا.. إلى أن وصلنا إلى نقطة مظلمة تماما من شاطئ البحر.. لنجلس على الرمال الناعمة ونحن نشعر أننا نمضي أجمل لحظات حياتنا.. الآن فقط أفهم لماذا يربط الشعراء العشق بالخمر.. فالعشق يسكرك حتى الثمالة.. هذا ما أشعر به وأنا أتحدث إلى (غزلان) وأخبرها بحبي للمرة الألف.. مع كلام جانبي حول مواضيع شتى.. إلى أن فاجأتني حين نظرت إلى ساعتها وهي تقول بشيء من القلق:

- إنها الثالثة فجرا.. يجب أن أعود الآن قبل أن ينتبهوا لغيابي.. المعذرة يا حبيبي.. سألتقي بك غدا.. في نفس الوقت.

نظرت إلى ساعتي بذهول.. هل يعقل أن 3 ساعات مرت بهذه السرعة؟!.. كنت أود أن نقضي بعض الوقت عندي في الشاليه.. لكنها أردفت بابتسامة عريضة وكأنها قرأت أفكاري:

- سنمضي الوقت غدا في محل إقامتك!!!.. أعدك بذلك.

لا بأس يا حبيبتي.. سأنتظر إلى الغد.. ستكون ليلة رائعة بكل المقاييس.. أردد هذا الكلام لنفسي بعد أن ودعتها.. لأسير عائدا إلى الشاليه.. حيث قضيت بعض الوقت على الفراش أفكر بحبيبتي.. ثم غرقت في سبات عميق.. سبات وردي إن صح التعبير.

استيقظت في اليوم التالي والساعة تقترب من الواحدة ظهرا.. يااااااه.. لقد غبت عن العالم وسافرت إلى فضائي الذاتي طويلا بعد سهرة أمس!!.. عموما.. لدي ليلة أخرى حافلة.. سألتقي بحبيبتي مرة أخرى مساء اليوم.. وسأعرض عليها الزواج.. نعم.. أنا أحبها.. أحبها كثيرا ولا أستطيع الحياة من دونها.

ثم.. أحدهم يطرق باب الشاليه!!!.. هل.. هل هي (غزلان)؟!.. لا يمكن.. المفترض أن تزورني في الليل كما أخبرتني بنفسها.. خرجت من الغرفة محاولا تعديل شعري ومحو آثار النوم من وجهي.. أنظر من فتحة الباب لأرى سيدة كبيرة في السن كما بدت لي.. فتحت لها مرحبا بشيء من الاستغراب.. لتبتسم وتلقي علي تحية سريعة.. سألتها عن هويتها.. فابتسمت وهي تقول:

- لا أصدق أنك نسيتني.. لقد كنت تواسيني مساء أمس حين رأيتني أبكي على شاطىء البحر.

ابتسمت بحرج.. لقد نسيت كل ما يتعلق بشأنها بعد لقائي ب(غزلان).. فقلت معتذرا:

- كان الظلام حالكا ولم أتبين ملامحك جيدا.. كما أنني استيقظت توا من النوم وعقلي مشوش.

نظرت إلي بعتاب مازح.. لتقول بمرح يختلف تماما عن مزاجها أمس:

- هل أبدو أجمل الآن بعد أن رأيت ملامحي جيدا؟!.

نظرت إليها بدهشة.. كيف تسألني سيدة لا أعرف حتى اسمها هذا السؤال؟!.. عموما.. لا يمكن أن توجد امرأة جميلة بهذه المواصفات.. إلا أنني أومأت برأسي مبتسما منتظرا أن تقول ما جاءت من أجله.. ثم:

- احم.. احم.. المعذرة.. لكني أريد أن أدعوك على العشاء في شاليهي الخاص.. إنه عربون امتنان وتقدير لما فعلته من أجلي.

قلت مبتسما:

- لا داعي لهذا يا سيدتي.. إنني لم....

قاطعتني بدلال مصطنع:

- اسمي (منال).. وأرجوك أن تناديني باسمي.. ثم إنني أصر على دعوتك على العشاء.. ولن أقبل بالرفض.. لا تقلق.. فقد رحلت صديقاتي صباح اليوم.. سنكون وحدنا!!!.

قالت عبارتها الأخيرة وهي ترمقني بنظرة ذات مغزى.. لتكمل مؤكدة قبل أن تودعني: - موعدنا في السابعة مساء.. لا تتأخر.

نظرت إليها بابتسامة غامضة خرجت رغما عني.. هل أروق لها يا ترى؟!.. إنني أروق للفتيات دوما.. لكن تلك السيدة تتصرف كمراهقة رغم سنها.. إنها حتى لم تمنحني الفرصة لأرفض.

- نعيش ونشوف!!.

هكذا قلت لنفسي متهكما وأنا أعود إلى الداخل وأتصل بأحد المطاعم القريبة لطلب وجبة الغداء.. ليمر اليوم بهدوء محبب إلى النفس.. إذ جلست أتناول الغداء وأشاهد التلفاز مع العبث بين الحين والآخر في هاتفي قتلا للوقت.. ثم ذهبت لحلاقة ذقني وأبدلت ثيابي استعدادا لتلبية دعوة تلك السيدة.. على أن ألتقي بحبيبتي (غزلان) بعد ذلك.

وصلت أخيرا وطرقت باب الشاليه.. لتفتح لي وهي ترتدي ثيابا أنيقة.. إلا أنها والحق يقال لا تناسب سنها على الإطلاق!!.. فدعتني إلى الدخول.. لأدخل وأنا أنظر حولي مبهورا.. شاليه فخم رائع يختلف عما يبدو عليه في الخارج من بساطة.. كل قطعة أثاث تجدها في مكانها الصحيح.. رائحة النباتات الداخلية تأسر الأنف.. تلك النافورة الصغيرة الرائعة.. مكان لا يمكن أن تصدق وجوده إلا إذا رأيته بنفسك.

جلست في صالة الشاليه بانبهار.. وجلست هي بجانبي.. لتقول بابتسامة عريضة:

- كيف حالك؟!.

أجبتها مبتسما بدوري:

- بخير يا سيدتي.. أشكرك مرة أخرى على دعوتك.

قالت بعتاب مصطنع:

- اسمي (منال).. أرجوك أن تناديني باسمي مجردا!!.

قلت وقد اتسعت ابتسامتي:

- أشكرك يا (منال).

تهللت أساريرها وهي تنادي الخادمة لتأتي ببعض المشروبات.. لا.. لم تكن مشروبات عادية.. بل خمورا!.. فقلت مستغربا:

- هل.. هل تشربين الخمر؟!!.

ردت بعبث:

- ولم لا؟!.. هل تشربه أنت؟!.

ابتسمت لا شعوريا وقد راحت شخصية العابث النصاب تطرق باب عقلي مرة أخرى.. ذلك الشيطان في أعماقي يصرخ ويطلب مني أن ألعب لعبتي الأخيرة مع (منال) علني أستطيع أن أحصل منها على مبلغ من المال فيما بعد.. إن النصب على النساء يجري في دمي كما يبدو.. هكذا ظل الصراخ يتردد داخلي.. لأحسم أمري وأقول:

- فلنشرب إذن.. ولنستمتع بليلتنا قبل تناول العشاء.

بدأت بالشرب.. واندمجت معها بسرعة أمام ضحكاتها العابثة وحديثها الساخر عن زوجها الوغد.. وأن الرجال لا هم لهم سوى الإيقاع بالفتيات لإشباع رغباتهم الحيوانية.. بالطبع هذا الكلام يشملني أيضا ولا يضايقني.. لأنها الحقيقة.. توازني يختل قليلا.. يبدو أن الخمر بدأ يترك تأثيره على عقولنا.. فها نحن نضحك دون سبب.. وننغمس تماما في هذه الأمسية الحمراء.. إلى أن ثقلت جفوني ودار رأسي حتى بت لا أرى حولي جيدا.

وبالفعل.. نمت في مكاني دون أن أشعر.. وليتني لم أنم.. فقد انقلب العالم بأكمله رأسا على عقب.. حين استيقظت بعد ساعات بدت طويلة للغاية على وقع أقدام تقتحم الشاليه وتقترب من غرفتي.. مهلا.. إنني لست في شاليه تلك السيدة.. بل في الشاليه الذي استأجرته.. كيف عدت إلى هنا دون أن أشعر؟؟!!.

وقبل أن أستوعب المفاجأة.. وجدت غرفتي مليئة برجال الشرطة وهم ينظرون إلي بتوجس.. لأصرخ مذعورا:

- ماذا تريدون؟!.. كيف تقتحمون المكان بهذه الطريقة؟!.. أنا لم أفعل شيئا!!.

سألني الضابط بحدة:

- هل تعرف سيدة تدعى (منال)؟!.

قلت باستغراب:

- ن.. نعم.. لماذا تسألني؟ !!..

سألني بقسوة:

- أين هي؟!.

أجبت بضياع:

- لا أعلم.. لا أعلم.. لقد كنت عندها أمس.. لكني استيقظت ووجدت نفسي هنا.. و....

قال لرجاله بلهجة آمرة:

- فتشوا الشاليه.. فتشوا كل شيء.

دب الحماس بالجميع.. إذ سرعان ما تفرقوا وراح كل منهم يفتش الشاليه بدقة.. كل شبر.. كل درج.. كل مكان.. حتى هتف أحدهم بانتصار:

- سيدي.. لقد عثرت على هذا.

قالها وهو يعطيه كيسا أزرق اللون لا أعرف من أين جاء به.. فتح الضابط الكيس ونظر إلى محتوياته بتمعن.. في حين نظرت إليه بحدة وقد تمالكت نفسي قليلا.. لأصرخ بهم مكررا:

- كيف دخلتم إلى هنا؟!.. وبأي حق؟!.. سأقاضيكم جميعا.

رد الضابط بقسوة وهو يمسكني من كتفي:

- لا تصرخ وإلا قطعت لسانك.. لقد وردتنا معلومات تشير إلى أن السيدة (منال) هنا.. إنها مفقودة منذ شهور.. وقد عثرنا بين أغراضك للتو على قطع من الذهب والماس تخصها.. مع محفظتها!!!.. كيف تفسر ذلك؟!.

نظرت إليه بذعر.. ثم قلت صارخا:

- لقد دس أحدهم تلك الأشياء هنا أثناء نومي.. أحدهم يريد إيقاعي بفخ ما.

سألني بصرامة:

- حسنا.. كيف تفسر وجودك هنا؟!.. ليس من المألوف أن يستأجر شخص شاليها ليأتي وحيدا.. هذا وحده كاف لإثارة الشكوك حولك!!.

قلت بتوتر:

- جئت من أجل فتاة أحبها واتفقت على لقائها هنا.. وبالصدفة التقيت بالمدعوة (منال).. حيث دعتني لزيارتها مساء أمس.

سألني غير مصدق:

- أين هو الشاليه الذي دعتك إليه السيدة (منال)؟!!.

ازدردت لعابي وأنا أقول:

- سآخذكم إليه.

استبدلت ثيابي بسرعة وذهبت معهم إلى شاليه (منال).. وعندما وصلنا.. لم نجد أحدا هناك على الإطلاق.. بل خرج لنا حارس من جنسية آسيوية ليخبرنا أن أحدا لم يأتِ لهذا الشاليه منذ أكثر من شهر!!!!.

نظرت إلى الجميع بفم مفتوح من هول الصدمة.. ثم قلت صائحا:

- هذه مكيدة.. إنها مكيدة مدبرة بإتقان.. لقد جئت إلى هنا لألتقي بفتاة أحبها اسمها (غزلان).. وقد قابلتها أمس فعليا.. إنها في شاليه عائلتها.. سآخذكم إليها لتتأكدوا من كلامي.. أما المدعوة (منال) فقد قابلتها صدفة.. ولا أعرف عنها أي شيء سوى ما قالته لي حين دعتني إلى هذا الشاليه.. أنا لا أكذب.. هذا ما حدث.

أشار إلي الضابط أن آخذهم إلى شاليه (غزلان).. فقدتهم مباشرة دون التفكير بما قد يسببه هذا من إحراج لحبيبتي أمام أهلها.. الرعب سيطر على قلبي وجعلني أفكر بإنقاذ نفسي فحسب.. لكن.. ما إن وصلنا.. نعم.. لقد تكرر الأمر.. لا يوجد أحد هناك.. إذ خرج لنا حارس آخر ليقول إن أحدا لم يأت هنا منذ أسبوعين تقريبا.. ليسألني الضابط بهدوء قاس:

- من الواضح أنك تتلاعب بنا.

نظرت إليه مصعوقا وأنا أقول:

- أنا لم.. لم أكذب.. أنا بريء.. بريء.. بريء!!!.

رد ساخرا:

- بالمناسبة.. لقد عثرنا في صندوق سيارتك على كل شيء بينما كنت نائما في العسل.. أدوات الحفر.. بقايا أتربة.. كل ما يوحي أنك قتلت (منال) ودفنت جثتها لتبعد أي دليل قد يقودنا إليك.. اعترف.. هل استدرجتها إلى هذا المكان لتقتلها؟!.

حسنا.. لن أصدع رؤوسكم بردود أفعالي أمام هذه المفاجآت.. فالأمر لم يتجاوز الصرخات التي تتكرر في الأفلام العربية: والله العظيم بريء!!.. لكني كنت بريئا بالفعل كما تعلمون.. وهكذا.. تمت إحالتي إلى النيابة العامة.. حيث ظللت محبوسا على ذمة التحقيق.. على أن يجد رجال الشرطة جثة (منال).. أو أعترف بكل شيء -على حد قولهم- كون جميع الدلائل ضدي.. وبالطبع.. تسبب الأمر بفضيحة كبرى.. فقد علم أشقائي بالحياة السوداء التي أعيشها واستغلالي المستمر للبريئات.. ووكلوا محاميا للدفاع عني كوني شقيقهم أولا وأخيرا.. لكن نظرتهم لي تغيرت إلى الأبد.. فكانت هذه مصيبة أخرى لا مجال للحديث عنها.

وفي خضم تلك الأحداث.. بدأت أتساءل.. أين (غزلان) يا ترى؟!.. أين هي من كل هذه الفوضى التي عصفت بحياتي؟!.. هل يعقل أن تكون لها يد بما حدث؟!.. كيف أكد الحارس أن أحدا لم يزر الشاليه منذ أسبوعين؟!.. وماذا عن السيدة (منال)؟!.. أين ذهبت؟!.. كيف اختفت؟!.. من قتلها إن كانت قد قتلت أصلا؟ !!.. وكيف انتهى الأمر لأجد نفسي في فراشي صباح ذلك اليوم؟!.. خاصة مع المسدس الذي عثر عليه رجال الشرطة في سيارتي!!!.. نعم.. لقد علمت بهذا فيما بعد.. هناك من دس مسدسا في سيارتي وخبأه بطريقة فنية تحت مقعد القيادة بعد أن وضع بصماتي عليه أثناء نومي على الأرجح!!.. إنها مكيدة متقنة دبرها أحدهم ضدي.. لكن كيف أثبت ذلك؟!.. كيف؟!.

كنت تائها في هذه الدوامة بضعة أسابيع.. قبل أن تظهر (غزلان) في حياتي مرة أخرى وبصورة

مفاجئة.. حين زارتني في السجن ذات يوم.. فقلت ملتاعا دون أي مقدمات: - (غزلان).. أين أنت يا حبيبتي؟!.. لماذا تركتني وحيدا؟!.. صدقيني.. أنا بريء.. أقسم لك.. أرجوك لا تصدقي أبدا ما يقال عني.

ردت بابتسامة ساخرة خبيثة لم أتوقع يوما أن أراها على وجهها:

- وأخيرا وقعت في يد العدالة!!!.

صحت بحسرة:

- (غزلان).. ماذا تقولين؟!!.

أكملت بابتسامة متشفية:

- هل تعرف من هي السيدة (منال)؟!.. إنها في واقع الأمر شقيقتي الكبرى التي ضحكت عليها منذ شهور وسلبتها أموالها.. ثم تركتها لتموت منتحرة من الحسرة والقهر.. غير مصدقة أن شابا في عمرك خدعها بعد أن وثقت بك.. لقد تركت رسالة قبل انتحارها تخبرني فيها بكل ما فعلته معها.. لهذا دبّرْت تلك المكيدة انتقاما لشقيقتي.

صُعقت وأنا أقول:

- (منال) شقيقتك؟!.. كيف؟!.. لقد التقيتها صدفة على شاطىء البحر أثناء وجودي في الشاليه.. ولم أعرفها أبدا قبل ذلك.. مهلا.. مهلا.. تقولين إنها ماتت منتحرة منذ شهور.. كيف قابلتها إذا في تلك الليلة على الشاطىء؟!!.

ضحكت ساخرة وهي تقول:

- السيدة (منال) التي قابلتها على الشاطىء هي في واقع الأمر أنا!!!!.. نعم.. أنا متنكرة!!!.

شهقت دون قصد من فرط الدهشة.. لتكمل بسخرية:

- صدقني.. من السهل للغاية أن تتنكّر امرأة.. مجرد جسد صناعي أرتديه بالكامل ليظهرني بدينة.. مع الماكياج والنظارات السميكة والأسنان الصناعية البارزة التي ساعدتني قليلا لتغيير نبرة صوتي.. كنت أراهن أنك ستخرج لتسير على الشاطىء ليلتها مستكشفا المكان.. هذا أمر بديهي يقوم به أي شخص يزور أي شاليه في العالم.. فجلست ساعات طوال أنتظر قدومك لأقوم بتلك التمثيلية.. وقد كان تنكري عشوائيا لا يشبه شقيقتي بالطبع.. فمن العسير أن يتنكر المرء ليشبه شخصا آخر.. خاصة أنك تعرف (منال) ولن ينطلي عليك تنكري.. أردت فقط أن أبدو كسيدة قبيحة كبيرة في السن لكنها تحمل اسم شقيقتي وهذا هو المهم.. أما الخمر الذي شربته.. فقد وضعْت فيه منوم قوي المفعول.. والزجاجة التي شربت أنا منها لم تكن في الواقع سوى عصير التفاح.. ثم جئت بك -وبمساعدة أحد أقاربي- إلى فراشك دون أن تشعر بشيء بفعل المخدر.. ووضعت محفظة شقيقتي مع مجوهراتها في أحد أدراجك.. مع رفش وحبل وبعض التربة في صندوق سيارتك.. والمسدس أسفل مقعدك.. فعلنا كل هذا أثناء نومك.. فقط كي نوهم رجال الشرطة أنك قتلتها.

سألتها مصدوما:

- يا إلهي.. هذا مستحيل.. مهلا.. هل كان لقاؤك بي في مقهى (كوستا) مخططا له إذا؟!.. كيف

عرفت أنني سألاحقك يومها أصلا؟!.

ردت بحنق:

- لم يكن الأمر مخططا على الإطلاق.. بل أعترف أنني أحببتك في البداية.. لكني فوجئت حين تحدثت مع صديقة (منال) ذات مرة وأخبرتها عنك.. فهي صديقتي أيضا رغم فارق السن بيننا.. وحين عرفت بأوصافك.. سألتني عن اسمك.. عندها تجهم وجهها.. وأخبرتني أنك أنت من تسبب بانتحار شقيقتي.. بالطبع صعقت بهذه الصدفة.. وقضيت أسابيع طويلة بالسؤال عنك للتأكد من تلك المعلومة.. إلى أن عرفت أنك نصاب محترف.. وأنك نفس الوغد الذي ضحك على شقيقتي.. حينها فقط قررت الانتقام.

قلت غير مصدق:

- فعلت كل هذا من أجل الانتقام مني فحسب؟!.

ردت بحقد:

- وهل ما فعلته هينا أيها الحقير؟!.. إنها شقيقتي الكبرى.. لقد كانت بمثابة الصديقة والأم أيضا.

صحت بشيء من الأمل:

- سيعرف رجال الأمن خدعتك.. سيكشفون الأمر ويعرفون أن شقيقتك انتحرت منذ شهور.. لقد تصرفت بمنتهى الغباء.

قالت بهدوء مستفز:

- أبدا.. لن يعرف رجال الشرطة شيئا يا عزيزي.. لقد خططت لكل شيء بإتقان.. ف. (منال) انتحرت بالفعل.. لكن لا أحد يعرف ذلك حتى الآن.. فقد قمنا بدفن جثتها في مكان مجهول بعيدا عن الأنظار.. كل ما يعرفه رجال الشرطة أنها اختفت في ظروف غامضة منذ شهور.. وقد أبلغنا عن اختفائها حينها لنتجنب فضيحة انتحارها التي ستمس سمعة عائلتنا ومركزها الاجتماعي.. كما ترى.. ضربنا عصفورين بحجر واحد.. أولا الانتقام منك.. ثانيا تلفيق أمر اختفاء (منال) ومنحه شبهة جنائية.. هذا أهون كثيرا من فضيحة الانتحار.. إذ ستنشر عائلتي خبر القبض على قاتلها -أنت- وسيبحث رجال الشرطة عن جثتها.. وسيعثرون عليها -بواسطة الأدلة التي تركناها-بعد شهور أخرى من الآن.. ستكفي تلك الأدلة لإدانتك وإعدامك.. أهمها المسدس الذي خبأناه أسفل مقعد سيارتك.. إنه نفس المسدس الذي استخدمته شقيقتي في الانتحار.. ستدفع الثمن أخيرا.. وداعا أيها الوغد!!!.

سألتها وأسناني تصطك لا شعوريا:

- لماذا؟!.. لماذا فعلت كل هذا؟!.. كان بالإمكان تلفيق تلك التهمة دون انتحالك لشخصية (منال)!!.

ردت ببساطة مستفزة:

- كنا نريدك أن تخبر رجال الشرطة أنك تعرف (منال) وتؤكد لهم وجود رابط بينكما.. فهم لن يعرفوا أن (منال) المتنكرة -أنا- يختلف شكلها عن تلك الحقيقية التي يبحثون عنها.. فهناك احتمال لا بأس به أن تنكر معرفتك بها لو استُدعيت للتحقيق وسؤالك إن كان لك علم

باختفائها.. هذا ما جعلني أتنكر بشكل امرأة أخرى تحمل نفس اسم شقيقتي لألتقي بك وأستدرجك لشرب الخمر وتنويمك.. لنقوم بعدها بوضع المجوهرات في أحد أدراجك.. وبسرقة مفتاح سيارتك لنضع فيها كل ما نريده من أدلة.. هذه أمور لا نستطيع القيام بها لو كنت في بيتك.. كما كنا نريدهم أن يقبضوا عليك في الشاليه وحيدا.. هذا سيثير الشبهات حولك.. ويبدو أننا نجحنا كما ترى.

قالتها وهي تطلق ضحكة صفراء كانت كالصفعة على قفاي.. ثم خرجت مبتسمة وسط ذهولي التام.. لقد.. لقد خدعت الكثيرات حتى بت لا أتذكرهن جيدا.. لكني بدأت أتذكر (منال) الحقيقية إلى حد ما.. لم أكن أعلم أنها انتحرت بعد أن خدعتها وأخذت أموالها.. هذا لا يهم الآن.. يجب أن أنقذ نفسي وأخبر رجال الأمن أن (غزلان) خدعتني.. انتفضت في مكاني حين تذكرت ذلك.. ورحت أصرخ مناديا الجميع أن يقبضوا على هذه المجرمة التي ضحكت علي.. أحاول إقناعهم أنني كنت أنا الضحية هذه المرة.. لكن.. لم يصدقني أحد بسبب كل الأدلة المتقنة التي تركتها (غزلان) خلفي.. وبعد أن تبين أن هناك تحويلا بنكيا لحسابي الشخصي قامت به (منال) الحقيقية منذ مدة طويلة حين قمت بالنصب عليها واستغللت حبها قبل أن تكتشف حقيقتي وتنتحر قهرا.

و.. انتهت قصتي عند هذا الحد.. السجن لمدة لا يعلمها إلا الله.. وتحقيقات لم تنتهِ حتى لحظة كتابة هذه السطور.. لكنها ستنتهي بالعثور على جثة (منال) كما قالت (غزلان).. حيث سيتم حينها اتهامي بقتلها بصورة رسمية.. يا إلهي.. كم أتمنى أن أعود إلى الماضي.. وأمسك بيد ذلك الطفل (أنا).. وأخبره بالمصائب التي سيرتكبها حين يكبر علّه يتجنبها!!.. أمنيات يستحيل أن تتحقق مع الأسف.. والمفارقة المؤلمة أنني الآن في السجن.. في مكان لن توجد فيه أي امرأة.. وكأن جنس النساء بأكمله يثأر مني على ما فعلته.. أعترف أنني أستحق كل ما حدث لي.. فما فعلته في حياتي ليس بالقليل.. لقد أوقعت الكثيرات في فخ وسامتي.. وجاء دوري لأقع في نفس المأزق.. ونفس الفخ.

زوجتي الثانية!!

أجلس في غرفة المعيشة وأعبث في هاتفي الذكي.. زوجتي (عهود) تخرج من غرفة النوم متأنقة.. تخبرني ببرود أنها ذاهبة إلى حفل زفاف صديقتها.. ثم تخرج وتصفق الباب خلفها بطريقة مستفزة.. إنها لا تطيقني بعد أن تزوجت عليها منذ شهور قليلة بسبب العقم الذي تعانيه.. فهي لا تنجب ولا أمل لها بالإنجاب.. هذا ما أكدته كل التحاليل الطبية طوال 5 سنوات منذ زواجنا.

أعترف أنني في البداية شعرت بنخوة الشباب حين أخبرتها بصدق أنني سأظل مخلصا لها للأبد ولن أتخلى عنها أبدا.. لأدرك مع مرور السنوات حجم تضحيتي.. فالاستمرار بهذه الطريقة مستحيل.. وستظل حياتي الزوجية ناقصة لأهم عناصرها.. الأطفال.. خاصة حين أرى أشقائي وأصدقائي وهم يقضون أوقاتهم الحميمة مع أطفالهم.. فقررت في النهاية -وبكل أسف- الزواج من أخرى بعد شهور من التفكير.. قبل أن أصارح (عهود) برغبتي هذه.. وأمنحها بنفس الوقت الحق كاملا في طلب الطلاق.

أتذكر أنها خرجت يومها غاضبة إلى بيت عائلتها.. لتعود منكسرة مستسلمة بعد بضعة أيام وبعد أن أقنعها أهلها وتحدثوا معها عن ضعف فرصتها في الزواج مرة أخرى.. وربما أخبروها أن تكون زوجة أفضل من أن تكون امرأة مطلقة.. المهم أنها عادت لتعيش معي ومع زوجتي الجديدة في شقتي هذه.. فحالتي المادية لا تسمح بشراء بيت أو تأجير شقة أخرى لزوجتي الثانية.. كما أن شقتي أنيقة واسعة وتحوي 4 غرف.. لذا منحت كل زوجة غرفة.. لكني ظللت أبيت كل الأيام في غرفة زوجتي الثانية.. كون (عهود) لا تريدني في غرفتها على حد قولها.. إلا أن هذا لم يغضبني لأنني أدرك جيدا غيرة النساء وكيف ستشعر امرأة بوجود شريكة لها.. وكوني أشفق عليها أيضا بسبب حرمانها من نعمة الأمومة.

تمر تلك الخواطر في ذهني.. قبل أن أنهض عائدا إلى غرفة النوم حيث زوجتي الثانية التي كانت تشاهد فيلما ما عبر شاشة الكمبيوتر وتستمع إلى أحداثه عبر سماعات وضعتها في أذنيها.. فعانقتها بحنان وسألتها بصوت مرتفع قليلا عن قصة الفيلم الذي تشاهده.. لتخبرني بكلمات سريعة بالتفاصيل دون أن تلتفت إلي.. ابتسمت وقبلت جبينها.. ثم عدت أدراجي مرة أخرى لأجلس في غرفة المعيشة بعد أن صنعت لنفسي كوبا من الحليب الساخن.. فالخادمة نائمة الآن بعد أن تجاوزت الساعة الحادية عشرة مساء ومن غير العدل إيقاظها من أجل ذلك.

تناولت كوب الحليب وأنا أشاهد إحدى المسرحيات القديمة لأكثر من ساعة.. باب الشقة يُفتح.. وأرى (عهود) قادمة.. فألقت علي ذات التحية الباردة.. لكني لم أرد على تحيتها المستفزة.. بل عاتبتها على طريقة معاملتها لي.. فأنا أكره أن أتصرف ببرود وكأنني لا أبالي.. في حين يتمزق قلبي من الداخل.. لقد بدأت أشعر بالملل من أسلوبها.. إنها تصبغ حياتي بأكملها بلون رمادي.. تخيل أن يكون أحدهم معك في بيتك وتراه مكفهرا متجهما يتحدث معك ببرود طوال الوقت.. كيف ستشعر حينها؟!.. خاصة وأنني إنسان مسالم هادىء الطباع لا أتحدث كثيرا ولا أختلط بالناس.. لأنني ما زلت أحاول اكتشاف نفسي رغم أنني تجاوزت الثلاثين من العمر.. يبدو أنني كبرت سريعا!!!.

المهم أنها تجاهلت عتابي وذهبت مباشرة إلى غرفتها لتغلق الباب وتقفله بالمفتاح كما تفعل

دوما منذ زواجي.. وكأنها لا تريد مني دخول غرفتها أبدا.. حتى أثناء نومها.. كما أنها لا تلتقي بزوجتي الثانية سوى بالصدفة.. وفي أوقات نادرة جدا دون أن تتبادلا كلمة واحدة.. فكل منهما تجلس في غرفتها معظم الوقت حتى باتت غرفة المعيشة مهجورة تقريبا.

تسألون كيف قبلت زوجتي الثانية بهذا الوضع؟!.. لأنها من عائلة بسيطة تعاني مصاعب مادية كبيرة.. فوجدت بي الرجل الذي سيوفر لها حياة كريمة.. خاصة وأن هذه الشقة تفوق كل أحلامها دون مبالغة.. أما أنا فقد اخترت الزواج منها تحديدا لأنها طيبة للغاية وتشبه والدتي رحمها الله في الكثير من الطباع.. ووجدت أنها ستكون أما رائعة لطفلي القادم رغم أنها لم تحمل بعد.. أفكر بهذا وأنا أرمق باب غرفة (عهود) بأسف.. عندها شعرت أن الوقت قد تأخر.. وأن علي الذهاب لفراشي.. خاصة بعد أن وجدت زوجتي الثانية وقد غرقت بدورها في سبات عميق.

في اليوم التالي.. عدت من العمل لأجد أن (عهود) عادت قبلي وهي تجلس في غرفتها تشاهد التلفاز.. فالصوت كان مرتفع نسبيا.. فكرت بالتحدث إليها مجددا.. فطرقت باب غرفتها بهدوء.. صوت التلفاز ينخفض تدريجيا.. ثم تفتح الباب ببرود وهي تنظر إلي بتحدّ.. سألتها بتوسل إلى متى ستستمر بتسميم الجو في الشقة.. أخبرتها كذلك أنني لم أرغب بطلاقها لحبي لها واحترامي للعشرة ولأفراد عائلتها.. لكنها تستغل هذا الحب وتستنزفه بتصرفاتها.. فردت بحدة:

- أنت لا تعرف شيئا عن أي شيء.. لا يتعلق الأمر بزواجك فحسب.. بل بزوجتك أيضا.. إنها تكرهني.. ولا تريدني في هذه الشقة.. هل تعلم أنها اقتحمت غرفتي منذ أيام قليلة لتطلب مني الرحيل رغم أنها هي الدخيلة على حياتنا؟!!.

قلت مدافعا:

- هذا متوقع.. ولا ألومها صراحة.. أنظري إلى طريقة استقبالك لها يوم زفافنا.. لقد كدت تقتليها بنظراتك حين دخَلَت شقتنا.. إنك حتى لم تتبادلِ معها كلمة واحدة منذ ذلك الحين.

ردت بعصبية:

- ما الذي تتوقعه؟!.. أن أبارك لها زواجها من زوجي؟!.. أن أغدو صديقتها؟!.. إنني زوجتك في النهاية.. ومهما كانت الظروف.. فلن أقبل أبدا أن تدخل شقتنا امرأة أخرى بحجة الإنجاب.. حتى لو تنازلت ووافقت على العودة إليك بسبب ضغوط أهلي.

قلت بألم:

- وهل الإنجاب أمر هين؟!.. كل إنسان يرغب بالإنجاب بعد زواجه.. لقد حرمت من هذه النعمة بسببك.

فتتأفف وتغلق الباب خلفها بقسوة وكأنها ملت هذا الكلام.. لأعود إلى غرفتي وأستبدل ثيابي بحسرة.. ثم أجلس على السرير أعبث في هاتفي بعض الوقت وأفكر إن كان يتوجب علي أن أطلق (عهود) لأرتاح.. قبل أن تدخل زوجتي الثانية وقد عادت من عملها للتو.. سألتني بقلق عما دهاني وهي ترى نظرات القهر وملامح الحزن على وجهي.. فأخبرتها بما جرى دون أن أنظر إليها.. لكنها لم ترد.. نظرت إليها لأفهم سبب صمتها.. فوجدتها تنظر إلي بحزن وألم.. لترد بأقوى مفاجأة سمعتها:

- عزيزي.. أرجوك.. أرجوك حاول أن تتذكر وتصفّي ذهنك.. زوجتك الأولى هذه لا وجود لها سوى في مخيلتك.. لا وجود ل (عهود) أبدا.. لا أعلم متى ستتخلص من تلك الأوهام!!!.

نظرت إليها غير مصدق.. لأقول بذهول:

- ما هذا الهراء؟!.. ماذا تقولين؟!.

فترد بحزم وألم:

- إنني أقول الحقيقة وأذكرك بها بين الحين والآخر.. لكنك تنسى وتعود لأوهامك.. لقد تشتت عقلك واخترع شخصية (عهود) بسبب حالة الاكتئاب الشديدة التي أصابتك بعد وفاة والدتك رحمها الله.. أنت مصاب بالذهان ([16]).. وقد أخبرك الطبيب النفسي بذلك.. هل تتذكر؟!.

قالتها واحتضنتني بأسف.. ثم تركتني لتدخل الحمام.. ويبدو أنها انفجرت بالبكاء حال اختلائها بنفسها.. أسمعها بوضوح من خلف الباب وهي تبكي بحرقة.. لا.. لا يمكن ما تقوله!!!.. نهضت مسرعا متجها إلى غرفة (عهود).. لأجد الغرفة خالية تماما.. يا إلهي.. هل ما قالته زوجتي الثانية حقيقي؟ !!.. هل يعقل أنني اخترعت شخصية (عهود) بالكامل؟!.. هل تخيلت بالفعل أنني متزوج من امرأتين؟!.. مستحيل.. مستحيل!!.

أقف متسمرا بمكاني للحظات فقدت فيها إحساسي بالزمن.. زوجتي الثانية تخرج من الحمام مبتسمة.. تقترب مني لتمرر أصابعها بين خصلات شعري وهي تقول بمرح مصطنع:

- ما رأيك أن نخرج اليوم لتناول الغداء معا؟!.. هذا سيمنحك شعورا أفضل بكل تأكيد.

أنظر إليها بغير اقتناع وعلامات البكاء ما تزال واضحة على ملامحها.. لا.. هذا هراء.. هراء.. لم أرد عليها.. بل تركتها ودخلت غرفة (عهود).. ثم أقفلت الباب خلفي.. زوجتي الثانية تطرق الباب وتهتف بحزن:

- عزيزي.. أنت تمر بمشاكل نفسية كثيرة.. هل تذكر الطبيب النفسي؟!.. هل تذكر الأدوية المضادة للاكتئاب التي تأخذها باستمرار؟!.. إنك حاصل على إجازة طبية منذ مدة طويلة ولا تذهب للعمل.. بل تذهب بين الحين والآخر لتجوب الشوارع.. ثم تعود موهما نفسك أنك كنت في العمل.. هل تتذكر كل هذا؟!.

لكن.. (عهود) تظهر مرة أخرى أمامي وهي تستمع إلى صوت زوجتي الثانية.. فتسألني: - ما بك يا عزيزي؟!.

لم أرد عليها.. يا إلهي.. كيف ظهرت فجأة؟!.. هل يعقل أن يصنع خيالي هذه المرأة.. أحك عينيّ بقوة كما يفعلون في أفلام الكارتون آملا أن تختفي.. لكنها لا تزال تنظر إلي مبتسمة.. فصرخت بكل قوتي:

- لا وجود لك.. إنك من خيالي.. ارحلي عني.

قلتها وأنا أسمع صوت جرس الباب.. فخرجت من الغرفة وذهبت بتوتر لأعرف هوية الطارق أمام أنظار زوجتي الثانية.. فتحت الباب وإذ بشقيقي.. رحبت به وقد لاحظ توتري.. إذ سألني قبل أن يلقي التحية:

- هل كل شيء على ما يرام؟!.. هل كنت تتشاجر مع زوجتك؟!.

نظرت إليه دون فهم.. لكنه تجاوزني سريعا وراح يبحث في أنحاء الشقة.. ثم سمعته يشهق ويطلق صرخة بدت غريبة أن تخرج من رجل!!!.. تبعته لأجد في الغرفة جثة (عهود) وقد طعنها أحدهم في معدتها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.. لكني قلت مطمْئِنا:

- لا تقلق.. (عهود) ليست حقيقية.. إنها من نسج خيالي.. فكان لا بد من التخلص منها.

شقيقي يصرخ بذعر:

- لقد قتلت زوجتك.. ماذا فعلت؟!.. ماذا فعلت؟!!.

أنظر إليه مصدوما وهو يمسك بيدي ويقودني إلى غرفة زوجتي الثانية قائلا:

- فلترتدي ثيابك بسرعة!!.

قلت بحيرة:

- مهلا.. لا يمكن أن تدخل معي.. زوجتي الثانية في الغرفة.. و....

قاطعني صارخا:

- لا توجد زوجة ثانية.. أنت متزوج من (عهود) فقط.. أرجوك حاول أن تركز.. لقد قتلت زوجتك!!!.. ارتد ثيابك الآن.. هيا.

يقول هذا بلهجة آمرة وهو يخرج هاتفه من جيبه ويطلب رقما ما.. ثم يقول بتوتر:

- أود الإبلاغ عن جريمة قتل.. شقيقي قتل زوجته.. العنوان (.....).. إنه يعاني من مشاكل عقلية ولديه ملف في مستشفى الطب النفسي.. فلتسرعوا بالله عليكم.

أنظر إليه غير مصدق.. هل يعقل ما يحدث؟!.. لقد أقنعتني زوجتي الثانية أن (عهود) من نسج خيالي.. لكن يبدو أن الواقع هو العكس!!!.. فزوجتي الثانية هي الوهمية التي صنعها خيالي.. وقد جعلتني أقتل زوجتي الحقيقية!!.. يا إلهي.. هل فهمتم؟!.. لقد.. لقد قتلت (عهود) لأتخلص من وهم وجودها.. لكن اتضح أنها هي الحقيقية.. أفكر بكل هذا وأنا أحدق برجال الإسعاف الذين وصلوا سريعا وهم يخرجون جثة (عهود).. في حين يقوم أحد رجال الشرطة بتكبيلي.. لأخرج من شقتي متجها إلى المجهول.

شقيقي يقول بحزن لأحد رجال الشرطة أثناء خروجي:

- لقد اخترع شخصية زوجته الثانية التي يشبّهها بوالدتي دوما كما قال لنا الطبيب النفسي منذ مدة.. فقد كان متعلقا بوالدتي بشدة ولم يحتمل صدمة وفاتها.. وهذه الشخصية الوهمية هي التي طلبت منه قتل زوجته الحقيقية (عهود)!!!.. ربما لأنها لم تكن على وفاق مع والدتي رحمها الله.. لقد أخبرتني المسكينة منذ مدة أن شقيقي بات يخيفها كثيرا مؤخرا.. إذ يتخيل شخصيات وحوارات لا وجود لها.. فأخذته إلى مستشفى الطب النفسي.. وقد أخبرني الطبيب الذي أشرف على حالته أنه من الممكن أن يعود إلى صوابه بالأدوية والسفر ابتعادا عن روتين الحياة.. وكنت بالفعل أقوم بالترتيبات اللازمة للسفر معه على نفقة الدولة لإحدى دول أوروبا.. للراحة والاستجمام.. ولعرض حالته على أحد أكبر المستشفيات هناك.. لم أتوقع أبدا أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه!!!.

يرد عليه أحدهم:

- سنستدعيك للتحقيق.. وسنسمع رأي الطب النفسي أيضا بكل تأكيد.

الخادمة تقف في زاوية غرفة المعيشة وهي متكورة على نفسها من شدة الخوف.. تنظر إلى ما يحدث غير مصدقة.. أما شقيقي فظل يراقبني بحزن.. لتنحدر دموعه وهو يقول:

- لا أعلم إن كان هناك أمل في شفائه!!..

هذا آخر ما سمعته أثناء خروجي وركوبي سيارة الشرطة مكبل اليدين وأنا أحدق بالهواء.. غير عالم ما هو مصيري.. خاصة مع هذه الذكريات المشوشة المزدحمة في عقلي.. حتى بدا لي أنني أعيش واقعا مختلفا لا يراه الناس ولا يعرفونه.. واقع أعيشه مع زوجتي الثانية التي أحبّها كثيرا.. لأنها تذكرني دوما بوالدتي رحمها الله.

أعراض غامضة!!

إنها بالفعل أعراض غامضة ستودي بحياتي في النهاية دون أن أفهم شيئا مما يجري حولي.. لا أجد وصفا أبسط أو أفضل من هذا لأبدأ قصتي!!!.. الجميع يقول إن ما أعانيه لا يتجاوز التهيؤات والأوهام.. لكني أعرف أن الجميع حمقى.. بما فيهم الأطباء أنفسهم.. إنهم لن يعرفوني أكثر مما أعرف نفسي.. وأنا أعرف جيدا أنني سأموت قريبا.. وأتمنى ذلك في واقع الأمر كي تنتهي معاناتي.. لهذا أسجل كلامي الآن في ذاكرة هاتفي الصوتية لجميع أقاربي كي يسمعوه بعد موتي!!!.. أريدهم أن يعرفوا أنني لست مجنونة.. وأن ما أشعر به هو ما يحدث لي حقيقة دون هلاوس أو تهيؤات كما يتصورون.

ولكن.. قبل أن أخبركم بتفاصيل قصتي.. أريد أن يعرف الجميع أنني فتاة عادية على أعتاب العشرين.. طالبة متفوقة في كلية العلوم الإدارية.. أعيش حياة سعيدة قبل التطورات الأخيرة.. إذ يغمرني والديّ دائما بحنانهما وحبهما.. ودائما ما يردد أبي أن أعظم هدية ممكن أن يقدمها الأبوان لأبنائهما هي أن يحبا بعضهما.. وهذا ما جعله يبني أسرة سعيدة.. خاصة بوجود امرأة طيبة للغاية كأمي.. أما أشقائي وشقيقاتي فهم دوما ذخرا لي وخير أصدقاء.. حتى إنني أقضي معظم الوقت مع أفراد عائلتي على عكس الكثيرات اللاتي يعثرن على الملاذ في صداقاتهن.. وأحيانا في علاقات عاطفية.

لقد حدث التغيير الجذري غير المفهوم في حياتي منذ حوالي أسبوع فقط.. وفي يوم عادي للغاية لا يوجد فيه ما يريب.. بل كان من المفترض أن يكون يوما سعيدا.. فنحن نتحدث عن عطلة نهاية الأسبوع وهناك مخطط للذهاب إلى السينما مع شقيقتي وابنة خالتي.. ثم العودة والسهر بعد ذلك أمام شاشة هاتفي حتى الساعات الأولى من الفجر كما نفعل دوما للاستمتاع بكل لحظة من العطلة الأسبوعية.

كنت يومها أتناول وجبة الغداء مع أفراد الأسرة في جو عائلي جميل نتبادل فيه أطراف الحديث بمرح حول أمور مختلفة بعد أسبوع طويل قضيته في الاختبارات الجامعية.. قبل أن أشعر فجأة بمن يضربني على رأسي بقوة!!!.. كان آخر ما أتذكره وقوع رأسي في حساء الشوربة لأفقد بعدها وعيي تماما.. من هذا الوقح الذي يتسلل إلى بيتنا ويضربني أمام جميع أفراد أسرتي؟!.. لا أعرف.

ظللت فاقدة الوعي فترة طويلة.. إلى أن شعرت بمن يهزني بهدوء محاولا إيقاظي.. فتحت عيني ببطء شاعرة بألم هائل في رأسي.. فرأيت جميع أفراد الأسرة ينظرون إلي بقلق.. في حين تفحصني شقيقتي التي تدرس في كلية الطب بما تمتلكه من خبرة بسيطة كونها لم تتخرج بعد.

نظرت إلى الجميع بصعوبة.. وسألتهم بصوت خرج مرتجفا رغما عني:

- م.. م.. ماذا حدث؟!.

ردت شقيقتي بتعاطف:

- لم يحدث شيء.. لقد فقدت وعيك دون سبب.. لكنك على ما يرام الآن.

قلت بحدة خافتة:

- ماذا تعنين؟!.. أنا لم أفقد وعيي دون سبب.. بل ضربني أحدهم على رأسي.. لقد شعرت بالضربة!!.

رد والدي وهو يربت على كتفي مهدئا:

- ومن سيفعل هذا يا عزيزتي؟!.. لقد كنا جميعا نجلس معك نتناول الغداء ورأينا ما حدث.

قلت بصعوبة:

- أين الخادمة؟!.

رد والدي ضاحكا:

- تلك العجوز المسكينة؟!.. وحتى لو كانت تنوي إيذاءك.. هل ستضربك أمامنا هكذا بكل بساطة دون أن نراها؟!.

ابتسم الجميع مشفقا.. لكني لم أكترث لابتساماتهم.. إذ لم أشعر بأي تحسن.. بل وعلى العكس تماما.. تلك الآلام المبرحة في رأسي جعلتني عاجزة حتى عن النهوض من الفراش.. لأقول بقسوة لم يعتدها أحد مني:

- أريد أن أتنفس.. الجو حار للغاية.. شغّلوا التكييف أرجوكم!!!.

هتفت والدتي وهي تشهق:

- التكييف في هذا البرد القارس يا ابنتي؟!.

صحت بتوسل حتى بدا الأمر غريبا للجميع:

- أرجوكم.. افعلوا ما أقوله!!.

أقول هذا وأنا أبعد البطانية عن جسدي باشمئزاز أمام نظرات الاستغراب المحيطة بي.. ليذهب شقيقي بهدوء ويفتح النافذة ليسمح بدخول الهواء البارد الذي جعلهم يرتعدون مباشرة.. لكني لم أشعر بأي تغيير في حرارة الغرفة!!!.. ثم يتجه شقيقي ناحيتي وهو يسألني بإشفاق:

- هل أنت على ما يرام؟!.

شعرت أنني سأفقد الوعي مرة أخرى وأنا أردد بضعف:

- أريد أن أنام.. أريد أن أنام.. أرجوكم.. دعوني أنام.. دعوني أنااااااام!!!.

كان الإرهاق يمنعني حتى من التفكير بما يحدث.. لذا غبت عن الوجود ساعات طويلة.. لأستيقظ مجددا وقد فقدت الإحساس بتعقب الوقت.. فنظرت مباشرة إلى الساعة في هاتفي النقال.. هل هناك خطأ ما؟ ؟!.. إنها الثالثة عصرا.. لكن التاريخ يشير إلى يوم السبت!!!.. لقد كان يوم الخميس حين تلقيت الضربة في رأسي.. هل يعقل أن أنام كل هذه المدة؟!.. ثم.. ما هذا الشعور الذي ينتابني؟!.. أشعر بعطش هائل.. إنني بالكاد أفتح فمي.. ألمس شفتيّ لأجدهما طبيعيتين للغاية وليستا متشققتين.. لماذا إذا هذا الشعور وكأنني لم أشرب الماء منذ أيام؟ !!.. وهذا الحر اللعين المتواصل رغم إننا في فصل الشتاء كما علمتم.. لحظات قليلة من الصمت والتوتر.. لأقرر النهوض من فراشي والذهاب إلى غرفة المعيشة حيث وجدت جميع أفراد أسرتي.. و.. ما إن رأوني.. حتى التفوا حولي وراحت والدتي تحتضنني بقلق بالغ.. فقلت بوهن وساقاي تكادا تعجزان عن حملي:

- الجو ما يزال حارا.. أرجوكم.. أريد بعض الماء.. أريد أن آكل أيضا.

كنت أتحدث بطريقة آلية مستسلمة.. لكن رغم ذلك.. ذهبت والدتي مسرعة لتنفذ طلباتي وهي تقول بصوت مرتفع:

- لا بأس عليك يا عزيزتي.. إنك بخير إن شاء الله.. إنه الحسد دون شك.

قلت بصعوبة:

- ماذا يحدث حولي؟!.. أنا لا أفهم شيئا!!.

ردت شقيقتي بابتسامة عريضة رفعت قليلا من معنوياتي:

- لقد كنت تشعرين بالتعب دون أن نفهم السبب.. ربما هي ضغوط الدراسة.. ربما السبب نفسي بحت.. وقد اتصلنا بالطبيب أثناء نومك.. وجاء ليفحصك دون أن يعثر على شيء.. كنت طبيعية للغاية.. فاقترحت عليه أن نعطيك سائلا مغذيا أثناء نومك.. لكنه قال أن لا داعي لذلك.. ورغم كلامه المطمئن.. أخذناك إلى المستشفى مساء أمس.. وجاءت التحاليل لتؤكد أنك على ما يرام ولا توجد أي مشاكل صحية.

يا إلهي.. فعلوا كل هذا دون أن أشعر بشيء!!.. شقيقتي تهمس في أذني بخبث:

- يا له من محظوظ!!.

سألتها بإنهاك:

- عم تتحدثين؟!.

أكملت ضاحكة:

- حبيب القلب الذي يشغل بالك بهذه الصورة.

تظن أنني أعاني كل هذا بسبب قصة حب؟ ؟!.. يا للسخافة.. كدت أن أرد عليها.. لكن وجدت والدتي أمامي وهي تحمل صينية تحوي عصير البرتقال والخبز والجبن.. تقول بحماس ولوعة:

- كُلي هذا مؤقتا يا حبيبتي إلى أن يجهز عشاؤك.. سيستغرق إعداده بعض الوقت!!.

لم أنتظر منها أن تضع الصينية على المائدة.. بل أخذت كوب العصير وجرعته كالمجنونة.. وأمسكت الجبن بيدي لأقوم بالتهامه بطريقة همجية.. شقيقي يهرع نحوي ويصرخ بي وهو يبعد عني صينية الطعام:

- ماذا يحدث لك؟!.. هل جننت؟!.

لم ألتفت إليه وأنا أنتزع منه الصينية انتزاعا حتى سقطت منها قطع الجبن على الأرض.. فأمسكت بها وأكلتها بصورة مقززة أمام أعين الجميع المذهولة!!.. ورغم ذلك.. ظل الشعور اللعين بالحر القاتل و.. الجوع والعطش أيضا!!!.. وكأن هناك خلل أصاب جسدي وتوازني وإحساسي نفسه.. خاصة حين تذكرت الثلاجة.. فركضت إليها لألتهم كل ما تقع عليه عيناي من طعام أمام الخادمة التي كانت تنظر إلي بذعر.. إلا أن شقيقي ووالدي أمسكاني بقوة وهما يحاولان منعي كي لا تنفجر معدتي على حد قولهما!!!.

لقد حاولت مقاومتهما.. لكني وجدت نفسي ضعيفة هشة لا أقوى على شيء.. فرحت أصرخ

بهما وأرجوهما أن يسمحا لي بالأكل والشرب.. و.. التكييف أيها الملاعين.. لا أكترث بكلامهم عن برودة الجو.. الحر يكاد يقتلني وجسدي يمتلئ بالعرق بشكل واضح.. وكأنني خرجت للتو من حمام بخار.. الدوار الشديد جعلني أغيب عن العالم للمرة الثالثة!!.

استيقظت بعد فترة بدت لي قصيرة نسبيا.. لكني كنت في مكان مختلف.. إنني في مستشفى كما يبدو.. اللعنة.. أشعر بالإرهاق أكثر من السابق.. وأن ساقيّ لا تقويان على حملي.. فلازمت الفراش مجبرة.. صرخت طالبة النجدة.. ليأتي أحد الأطباء ويأمر الممرضة بغرس حقنة مهدئة في ذراعي.. حاولت المقاومة.. إلا أنني كنت ضعيفة للغاية.. وعندما نعجز عن تغيير ما يحدث حولنا.. نستخدم لساننا!!!.

لذا فقد خرجت مني -مع الأسف- كلمات بذيئة للغاية لست معتادة عليها ولا يمكن أن تخرج من بنت محترمة!!!.. لتحتبس الكلمات وأنا أغرق في عالم النوم مرة أخرى.. لقد أصبح هذا مملا.. إنني عاجزة حتى عن التفكير بسبب هذه الأعراض المجهولة.. يا إلهي.. لا بد من بعض التعقل وإن بدا هذا مستحيلا في ظل حالات الهستيريا ([17]) التي أعيشها.. والإغماءات المتواصلة هذه والإبر المهدئة.

استيقظت ولا أعلم كم غبت عن الوعي.. لكني كنت في حال أسوأ.. لم أقوَ حتى على ضرب الجرس.. فانتظرت مصيري وأنا بالكاد أفتح عيني.. ليدخل الطبيب بعد دقائق مع بعض الممرضات.. سألته بصوت منهك:

- أين أنا؟!.. ومن أنت؟!.

قال الطبيب بابتسامة بدت لي شديدة البلاهة:

- أنت في مستشفى الطب النفسي منذ حوالي أسبوع.. وأنا طبيبك المتابع لحالتك.. إنك تتعرضين لاضطرابات نفسية نجهل أسبابها بصراحة.. ربما يحتاج الأمر إلى المزيد من الفحوصات والدراسة.

سألته بتوسل:

- من سيعرف ما يجري لي إذا؟ !!.. لماذا أمر بهذا الانهيار العصبي؟!.

رد بتوتر لم يخفَ علي:

- هذا بعيد تماما عن الانهيار العصبي ([18]).. لقد قمنا بإجراء فحوصات كثيرة للوقوف على حالتك الصحية.. وتأكدنا أنك على ما يرام.. يبدو أن إحساسك يخدعك لسبب مجهول.. هناك ما يدعى ب (الذاكرة الزائفة).. عندما يتكفل العقل بتلفيق ملف كامل لخبرات لا وجود لها يظنها المرء حقيقية.. لكن الأمر يختلف في حالتك.. إذ نتحدث هنا عن (أحاسيس زائفة) -إن صح التعبير- مجهولة السبب.. فتجعلك تشعرين بالعطش والجوع والحر والإرهاق!!.

لم أجد ما أقوله.. بل رحت أمسح العرق الذي يتصبب بغزارة من فوق جبيني.. ثم سألته بيأس:

- أين أفراد أسرتي؟!.

رد بتعاطف:

- طلبت منهم الانتظار في الاستراحة القريبة من غرفتك.. أردت أن أكون أول من يتحدث إليك

بعد استيقاظك.. أخبريني بصراحة.. هل هناك سر في حياتك قد يساعدني على فهم حالتك؟!.. أي شيء تقولينه سيبقى بيننا.. تأكدي من ذلك.

نظرت إليه بألم.. وغمغمت أن لا يوجد شيء مهم على الإطلاق.. وأنني لم أبت ليلة واحدة في أي مستشفى طوال حياتي سوى حين قمت بإزالة اللوزتين منذ سنوات قليلة.. أومأ الدكتور برأسه إيجابا.. ثم قال:

- كل ما أطلبه منك التعاون معنا.. ستتناولين وجباتك الغذائية بصورة منتظمة.. وسيدخل أفراد عائلتك بعد قليل.. ولكن.. أرجوك حاولي أن تحافظي على ثبات أعصابك.. وإلا سنضطر آسفين لإعطائك حقنة مهدئة أخرى كي نحميك من نفسك. قلت بوهن والفراش تبلل تماما من شدة العرق:

- دكتور.. أريد أن أعود إلى حياتي الطبيعية.. أرجوك!!!.

رد مشجعا:

- نحن نفعل كل ما بوسعنا.. وأنا لن أتوقف أبدا عن البحث وربما مراسلة أكبر مستشفيات العالم!!!.. لن أتركك تعانين بهذه الصورة.

قال جملته هذه وتركني حائرة مرهقة إلى درجة لا تصدق.. قبل أن تصلني وجبة العشاء.. ويدخل معها أفراد أسرتي وبعض أقاربي الذين كانوا ينتظرون في الخارج.. لن أطيل عليكم بما حدث من بكاء ومعانقة.. وكلام أمي التي تقسم إنني محسودة وأحتاج إلى رقية شرعية.. أما أبي فكان تائها لا يفهم كيف انقلبت حياة ابنته فجأة وأصيبت بهذا الجنون.. لم يقل ذلك لكني رأيت نظرات الشفقة في ملامحه.

قضيت بعض الوقت ألتهم طعامي أمام نظرات أفراد أسرتي شاعرة أنني فقدت الثقة بالجميع بعد عجزهم الواضح عن فهم ما أصابني.. ولم أكتفِ بما أكلته بالطبع.. بل طلبت المزيد.. لكن كانت هناك أوامر محددة من الطبيب بعدم تقديم أي مأكولات إضافية لي خوفا على صحتي.. ثم.. تذكرت هاتفي الذكي.. فطلبت من شقيقي أن يذهب إلى البيت ويأتيني به فورا.. نعم.. العالم الآن مفتوحا بأكمله من خلال الإنترنت.. سأبحث بنفسي علني أفهم تلك الأعراض الغامضة التي أمر بها.. لن أعتمد على هذا الطبيب الأحمق.

بعد أكثر من ساعة.. وصلني هاتفي.. وبدأت أبحث بأصابع مرتجفة في شبكة الإنترنت عن أي معلومة قد تساعدني.. لكني لم أجد شيئا يذكر في عالم الطب النفسي -أو حتى الباطني- عن حالتي.. إلى أن عثرت على موقع متخصص في علم الظواهر النفسية الخارقة (الباراسيكولوجي) -إن جاز إطلاق كلمة علم عليه أصلا- لأقرأ مصطلح جديد لم أسمع به من قبل به.. (التقمص العاطفي) ([19]) !!.. لكن هذا التقمص العاطفي لا يمكن أن يحدث إلا في حالات التوائم أو بين الأم وأبنائها.. وفي ظروف نادرة جدا.. ترى.. هل لدي توأم يمر بمشكلة ما؟ !!.. مستحيل.. لقد ولدت وحيدة.. دعكم من أن كل هذا الكلام قد يكون محض هراء أصلا.. لذا وضعت هاتفي جانبا دون اقتناع.. خاصة مع الإرهاق الذي جعلني أفقد وعيي حتى بات الأمر مستفزا لمن يتابع كلامي دون شك!!.

استيقظت مرهقة أكثر مما كنت عليه قبل الإغماء!!.. وهذا في حد ذاته لغز.. والدتي تضع يدها على جبيني وتقول:

- يا حبيبتي.. أنا ما زلت مصرة على أنك محسودة أو مصابة بمس من الجن!!.

قلت بعينين نصف مغمضتين:

- هل يعقل أن أكون مصابة بمس من الجن؟!!.

ردت برهبة:

- لا أعلم يا بنيتي.. ولكن فحوصاتك الطبية طبيعية للغاية.. والطب النفسي عاجز تماما عن معرفة ما يحدث لك.. لا يوجد أمامنا سوى الحسد أو الجن.

استسلمت لكلامها وأنا أنظر إلى أبعاد أخرى.. ثم فقدت وعيي للمرة الألف.. لكني استيقظت بعد فترة زمنية أجهلها.. وقد قررت أن أسجل كلامي هذا في ذاكرة هاتفي الصوتية بعد أن فقدت الأمل بالعودة إلى حياتي الطبيعية.. إنني أتحدث بصعوبة كما سيبدو لمن يستمع إلى التسجيل.. فالموت يناديني ويطرق بابي.. والواقع أنني أتمنى الموت كما ذكرت في بداية قصتي!!!.. هذا أفضل بكثير من العذاب النفسي والجسدي الذي أعيشه.. لن يهمني بعد الآن أن أعرف سبب ما يحدث لي.. لقد استسلمت لقدري.

عزيزي القارئ.. هذا الكلام خارج مذكرات تلك الفتاة المسكينة.. لكن يجب ذكره كي تتضح لكم الصورة كاملة.. فالواقع أن الفتاة اقتربت كثيرا من الحقيقة عندما تحدثت عن (التقمص العاطفي) وعن المشاعر بين التوأمين وبين الأم وأبنائها.. لكنها ليست الحقيقة كاملة.. هل تذكرون حين تحدثت في سياق مذكراتها عن خضوعها لعملية جراحية بسيطة لاستئصال اللوزتين منذ سنوات قليلة؟!.. حسنا.. لقد أخذ أحد أطباء المستشفى حينها نقطة دم ربما.. أو شعرة صغيرة.. أي شيء يحتوي على الحمض النووي الخاص بالفتاة دون علمها وعلم أهلها.. وبدأ يجري تجارب سرية في الاستنساخ ([20]).. لكن تجاربه هذه باءت بالفشل بسبب نقص الإمكانات.. فسافر إلى ولاية (تكساس) الأمريكية ليزور صديقا له -وهو طبيب أيضا- كي يساعده في إجراء أبحاثه.

وقد نجح الطبيبان في تجربتهما.. واستنسخا فتاة من بطلة قصتنا في أحد المختبرات الطبية!!!.. ثم قاما بتهريبها إلى منزل الطبيب الأمريكي المنعزل القريب من صحراء (تكساس) منذ أيام قليلة كي لا يكشف أحد أمرهما.. وقد شعرت الفتاة المستنسَخة أنها مختلفة عن بقية البشر بشكل أو بآخر.. وتعيش حياة غير طبيعية.. خاصة وأن ذاكرتها بدت مضطربة تختلط عليها في أمور كثيرة.. لذا هربت من بيت الطبيب.. وضلت طريقها في صحراء (تكساس) ساعات طويلة قبل أن تتعثر هناك وتسقط على رأسها.. وهي اللحظة التي شعرت فيها بطلة قصتنا بتلك الضربة على رأسها التي بدأت بها أحداث القصة!!!.. وراحت بعدها الفتاة المستنسَخة تعاني الأمرّين.. شعورها بتلك الآلام المبرحة.. مع الجوع والعطش والحر.. إلى أن لاقت حتفها متأثرة بكل هذا دون أن يعلم عنها أحد شيئا.. لأنها بنظر القانون غير موجودة أصلا.. وقد عثر عليها الطبيب جثة هامدة بعد أيام من البحث.. فقام بدفنها -بمساعدة صديقة- بعيدا عن الأنظار.

وبدافع الفضول.. حاول الطبيب أن يتواصل مع بطلة قصتنا بعد أن احتفظ ببياناتها الشخصية حين أجرى لها عملية استئصال اللوزتين.. فقط ليخبرها بحقيقة ما فعله شاعرا بالذنب لما حدث.. ولمعرفة إن كان هناك أي تغيير في حياتها بعد موت نسختها.. كون أبحاثه أكدت له أن هناك اتصالا نفسيا مؤكدا بين المستنسخين بالفعل.. ففوجىء حين ردت شقيقتها الكبرى على الهاتف لتخبره أنها لقت حتفها بعد أعراض غريبة غير مفهومة.. وقد شعر الطبيب بذنب كبير

كونه مسؤولا بصورة مباشرة عما حدث.. وبالطبع واجه شتائم وتهديدات لا حصر لها من الشقيقة.. فأنهى المكالمة وقرر الاستقرار في (الولايات المتحدة الأمريكية) وعدم العودة أبدا خوفا من وقوعه في متاعب قانونية جراء فعلته.. حيث تواصل بعدها مع الطبيب النفسي الذي أشرف على حالة بطلة قصتنا ليفهم منه أكثر عن كل ما عانته.

إنهم يتحدثون عن الاتصال النفسي القوي بين الأم وأبنائها أو بين التوائم.. لكن لم يتحدث أحد يوما أو حتى يفكر بما سيكون عليه الاتصال النفسي بين المستنسخين!!!.. ربما لأنه لم يحدث أن تم استنساخ آدمي لدراسة تصرفاته واتصاله النفسي بالمستنسِخ.. لهذا ماتت بطلة قصتنا متأثرة بآلام نسختها التي لقيت حتفها في صحراء ولاية (تكساس) الأمريكية.. وبقي موتها لغزا يجهله الجميع الذين ظلوا يتساءلون دون توقف عن حقيقة ما حدث.. وعن تلك الأعراض الغامضة!!!.

حُب.. بمقاييس مختلفة!!

حُب بمقاييس مختلفة.. ربما يكون العنوان غريبا بعض الشيء.. لكني أعتقد أنه مناسب للغاية لقصتي.. ولا أبالغ لو قلت إنني أول فتاة في العالم تمر بقصة كهذه!!!.. فهي تطرح تساؤلات لا حصر لها حول أسرار الإنسان وتاريخه بأكمله.. إنها قصة خارجة عن المألوف جعلتني متأرجحة بين عالمنا الحقيقي وعالم آخر مجهول نتحدث عنه ونقرأ عنه في القصص دون أن نعيشه واقعا.. أتحدث عن عالم ما وراء الطبيعة بكل تأكيد.

إنني فتاة في السابعة عشرة من العمر.. مقبولة الملامح.. متوسطة القامة.. ألفت انتباه الشباب أحيانا كثيرة.. خاصة حين أكون متأنقة.. وربما لا أختلف عن أي فتاة في مثل عمري.. كما أن تقاريري الدراسية جيدة ترضي والديّ وترضيني شخصيا.. أعتقد لو كتبت يومياتي في دفتر مذكرات وألقيته في الشارع.. فستظنون أنه دفتر مذكرات نموذجي يصلح لجميع الفتيات.. إذ لن يحوي سوى ذكريات عادية مع مقتطفات من أغاني مطربين هذا الجيل.. وقصائد شعر عن فارس الأحلام الذي تترقبه كل فتاة.

لقد تغيرت حياتي بأكملها حين عاد أبي ذات يوم إلى البيت ليخبرنا بمفاجأة سارة.. فقد اشترى -بالشراكة مع عمّي- شاليها جميلا حديث البناء في منطقة (الجليعة).. شاليه للعائلة!!!.. إنه حلم وقد تحقق أخيرا.. لا يمكن أن أنسى لحظة تلقّي الخبر وكيف احتفلنا جميعا بأجواء مرحة حميمة.. حتى إنني زرت ابنة عمي في اليوم التالي لنضع بحماس شديد الخطط والتصورات لزيارتنا الأولى للشاليه بعد أن اتفق أفراد العائلة على قضاء فترة إجازة رأس السنة هناك.. كنا ننوي أن نمارس كل الأنشطة التي تمارسها أي عائلة في تلك الأجواء.. المشي على الشاطئ.. مسابقات ثقافية.. تناول المشويات مساء.. والجلوس على شاطئ البحر مع ابنة عمي ليلا للحديث عن كل شيء تقريبا.. جو عائلي حميم أعشقه كثيرا.. فكنا ننتظر ونعد الأيام انتظارا لتلك الإجازة.. إلى أن حان موعدها بعد فترة دراسية مملة واختبارات متعبة مرهقة انتهت كلها على خير.

توجهنا أول أيام الإجازة إلى منطقة (الجليعة) التي تمتلئ بالشاليهات عموما.. فكان أول ما لاحظته حين وصلنا حجم الشاليه الصغير نسبيا.. إلا أنه بدا لنا وكأنه قصر تاريخي عظيم لم أكن لأمانع لو أقضي فيه حياتي بأكملها.. خاصة مع رائحة البحر المحببة التي جعلتني أسيرة المكان.. لذا رحت بحماس أخرج حقيبتي وحاجياتي من السيارة ومن ثم الترحيب بعمّي وأسرته الذين كانوا قد وصلوا قبلنا بلحظات قليلة.. فكنت أمزح مع ابن عمي بمرح يدل على لهفتنا لهذه الإجازة.. وأعانق ابنة عمي التي أعتبرها أغلى صديقة عندي.

وبعد أن وضعنا كل حاجياتنا في أماكنها المخصصة.. قمنا بإعداد غداء خفيفا من الساندويتشات التي تناولناها في أجواء جميلة.. لنقضي بعدها وقتا ممتعا في لعب الورق والحديث والضحك حول أمور متفرقة.. حتى مر الوقت سريعا دون أن نشعر مع وجود الهواتف الذكية التي قتلت كل لحظة فراغ ممكنة.

في المساء.. راحت أمي وزوجة عمي -بمساعدة الخدم- تعدان اللحوم بكل أنواعها تمهيدا للشواء.. في حين بدأ أبي وعمّي وبقية الأولاد بتجهيز الفحم بحماس وضحك متواصل على مواقف لا يمكن أن تكون مضحكة إلا في أوقات كهذه.. أما أنا فقد خرجت مع ابنة عمي للمشي

على الشاطئ واستكشاف المكان على حد قولي.. وهي البداية الفعلية لقصتي!!!.

كانت الساعة لا تتجاوز الثامنة مساء والظلام يخيم على المكان سوى من الإضاءة الخافتة المنبعثة من الشاليهات المطلة على الشاطئ.. شعور جميل ونحن نمشي ونتأمل البحر الذي بدا لنا غامضا لا نهائيا مما يثير لديك خيالات كثيرة.. خاصة مع البرد الشديد الذي جعل كل منا تدفن نفسها في ثيابها الثقيلة مما خلق لدينا شعورا رائعا بالاحتواء.. كنت أتحدث مع ابنة عمي حول مختلف المواضيع بهدوء وصوت هامس وكأنني لا أريد كسر السكون الذي يعم المكان.. قبل أن يقطع حديثنا فجأة صوت موسيقى هادئة جدا تسحر القلب تنبعث من مكان ما!!!.. التفتنا سريعا لمصدر الصوت فوجدنا شابا يجلس وحيدا مقابل الشاطئ وينظر إلى البحر بشرود محبب وهو ممسك بهاتفه الذي تنبعث منه هذه الموسيقى.. بالطبع.. من منا لا يتحرك شيء في أعماقه أمام الهدوء والبحر والعزلة والموسيقى الهادئة؟!.

كنا نسير بمسافة قريبة نسبيا من ذلك الشاب.. لذا أثار وجودنا انتباهه أيضا.. فالتفت لينظر إلينا بدافع الفضول.. و.. تلاقت نظراتنا في لحظة واحدة.. لحظة لا يمكن وصفها لكم مهما أجدت من تعابير ومفردات اللغة!!!.. وإذا قلت لكم ما شعرت به حينها فستصفونني بالمراهِقة العابثة.. لكني أؤكد لكم أن الأمر كان مختلفا.. فقط تابعوا معي أحداث القصة وستفهمون ما أعنيه.

فعندما التفت إلينا الشاب الذي بدا في مثل سني تقريبا.. بدأت دقات قلبي تضطرب.. وعيناي لا تريدان النظر إلى شيء آخر سواه.. وكأنني أعرفه منذ زمن طويل.. وإني.. إنني أحبه كما لم أحب أحدا من قبل!!!.. شعور مهيب لا يوصف.. قوة غريبة مجهولة شدتني ناحيته.. والأغرب أنني رأيته يتصرف بصورة شبيهة.. فما إن التفت ورآنا.. حتى هب واقفا وهو يضغط بسرعة على زر إغلاق الموسيقى في هاتفه.. وراح ينظر إلي بذهول شديد متجاهلا ابنة عمي التي همست بحرج:

- ماذا دهاك أيتها الحمقاء؟!.. إنه يريد معاكستنا.. فلنكمل سيرنا ولنتجاهله.

لم أستمع إليها.. بل بقيت في مكاني أحدق بالشاب بصمت تام.. ثم.. حسمت أمري ومشيت مبهورة مسحورة ناحيته وأنا أسمع صوت ابنة عمي الهامس وهي تكرر ما قالته.. لكني تجاهلتها تماما!!!.. أما الشاب ففعل الشيء ذاته.. إذ توجه بدوره ناحيتي.. لنقف متقابلين فترة من الزمن نحدق ببعضنا غير مصدقين.. غير مصدقين ماذا؟؟!!.. لا أعرف بالضبط.. كل شيء بدا غير مفهوم.. أتأمل ملامحه وسط الصمت الذي خيم علينا جميعا.. إنها ملامح عادية للغاية لا يمكن أن تثير انبهار أي فتاة.. لماذا أشعر بذلك الانجذاب الرهيب نحوه إذا؟!.. لم أجد الوقت للتفكير بالإجابة على السؤال.. إذ انتبه الشاب لنفسه وقال بحرج:

- المعذرة.. أشعر.. أشعر أنني أعرفك منذ زمن طويل.. أشعر أنني.. أنني أحبك.. أحبك يا حبيبتي!!!!.

نظرت إلى عينيه للحظة.. لأرد بعينين دامعتين تأثرا بالموقف:

- وأنا أيضا يا حبيبي.. أنا أحبك رغم إنني لا أعرف حتى اسمك.. يا إلهي.. ماذا يحدث لي؟!!.

اقتربت مني ابنة عمي سريعا وأمسكت ذراعي بشيء من القسوة وهي تحاول أن تجرني بعيدا وتقول بحنق أمام تصرفاتي الغريبة هذه:

- هل جننت؟!.. ماذا تفعلين؟!.. هيا.. لنذهب.

أمسكت يدها برفق وأبعدتها عن ذراعي وأنا ألتفت إليها لأقول بتوسل:

- أرجوك.. اتركيني أتحدث معه على انفراد بعض الوقت.. ابتعدي عنا قليلا وراقبي الطريق كي لا يكشف أحد وجودي معه!!!.

ردت باستنكار واضح وهي تراني أتصرف لأول مرة بهذه الطريقة وأمام شخص لا أعرفه ولم أره في حياتي:

- أيتها الحمقاء.. لماذا تتصرفين كفتاة رخيصة تقع عند أقدام أول شاب ينظر إليها؟!!.

أنا لا ألومها أبدا على ردة فعلها.. فعدد لا بأس به من الشباب لا يعرفون الحب من أول

نظرة.. بل الجنس من أول نظرة!!!.. لكني قلت بهمس غاضب متوتر:

- افعلي ما أقوله لك.. سنتحدث لاحقا.. أرجوك أن تتركيني معه الآن.

ظلت تحدق بي بغضب غير مصدقة ما أفعله.. ثم تركتني أخيرا معه لتبتعد وهي تهمهم بعبارات غاضبة لم أستمع إليها.. أما الشاب.. فلم يعر ما حدث أي اهتمام.. إذ قال وهو يمسك بيدي دون أي اعتراض مني:

- صدقيني.. ما إن رأيتك حتى اكتسح الحب كل ذرة من كياني.. لا أعرف ما يحدث لي يا حبيبتي.. كل ما أعرفه أنني أريد أن أكون معك إلى الأبد.. بالمناسبة.. اسمي (مشعل).

قلت بحنان وقد تدفق تيار الحب بين جسدينا:

- هذا ما شعرت به أنا أيضا يا حبيبي حال رؤيتي لعينيك.. اسمي.. اسمي (مشاعل).

هل يعقل أن يكون هذا التشابه بين اسمينا؟!.. لا يهم الآن.. المهم أن أكون معه.. ثم.. وقفنا ننظر إلى بعضنا بتأثر غير مفهوم.. لتنهمر دموعنا فجأة وكأننا حبيبان عثرا على بعضهما بعد سنوات طويلة من الفراق!!!.. أعترف أن ما حدث قد يبدو بمنتهى السخف للكثيرين منكم.. فلا تنسوا أنني أتحدث عن شخص لا أعرفه ولم أره في حياتي.. لكني -وبنفس الوقت- أشعر أن قلبي تعلّق به بشكل غير مفهوم ولا يمكن وصفه.

رحنا بعدها نمشي سويا على الشاطئ وهو يمسك يدي برقة وحنان بالغين.. حيث بدا المكان مغرقا بالرومانسية وكأنني أعيش في كوكب آخر وردي جعلني في سلام ذاتي.. نتحدث بعقلانية للحظة محاولين تفسير شعورنا الغريب تجاه بعضنا.. لكن سرعان ما يذوب العقل وكأننا مسيرين بقوة خارجة عن إرادتنا.. لتتغير دفة حديثنا إلى قصائد العشق والغرام.

ألتفت بين الحين والآخر لأجد ابنة عمي تسير خلفنا بمسافة بعيدة نسبيا وهي ما تزال تشير إلي بإصرار أن أعود وأكف عن جنوني هذا.. لا شك أن عشرات الخواطر والاتهامات بالحمق والغباء والتهور قد خرجت من فمها وهي تنظر إلينا.. و.. كان لا بد لتلك اللحظات الرائعة أن تنتهي مع الأسف ويحين موعد عودتي إلى الشاليه كي لا يشك أحد بشيء.. فتركت الشاب بتأثر شديد رغم إننا تبادلنا أرقام هواتفنا.. على وعد مني بالاتصال به في وقت متأخر الليلة بعد أن ينام الجميع.

رجعت مع ابنة عمي إلى الشاليه.. إلى عالمنا الحقيقي.. حيث أخبرتها في طريق عودتنا عن شعوري الغريب بالألفة تجاه ذلك الشاب وأنني أحبه كثيرا دون أن أفهم أنا نفسي السبب.. لكنها

ظلت تهز رأسها بامتعاض وتمط شفتيها غير مقتنعة بكلامي.. ولا ألومها على ذلك بالطبع.

أمضينا الوقت مع أفراد العائلة وقد اندمجت ابنة عمي بالحديث والضحك مع الجميع.. أما أنا فكنت في عالم آخر.. أفكر طوال الوقت بما حدث.. فلا يمكن أن تتجه أي فتاة إلى شاب عادي لم تره من قبل وتخبره بحبها وعشقها له!!!.. هذا يجعلها حمقاء إلى حد لا يصدق.. المذهل أن مشاعرنا متبادلة.. لأنني واثقة أن كلامه لم يكن مجرد رد فعل لتصرفي.. بل هو من أخبرني بحبه أولا.. وقد رأيت الصدق واضحا في عينيه.. و:

- هل أنت بخير يا عزيزتي؟!.

يسألني أبي ضاحكا أثناء العشاء عن سبب شرودي ورائحة الشواء تفوح من كل مكان حولنا.. فنظرت إليه مبتسمة وأشرت برأسي إيجابا وأنا أنظر إلى طبقي دون أن أشعر بأي رغبة في الأكل.. ثم رحت أنظر إلى شاشة هاتفي كي أتجنب أسئلتهم عن شرودي الواضح.. أصوات الضحكات تتعالى وسط أجواء المرح التي كنت أترقبها منذ مدة طويلة.. لكني الآن أجدها سخيفة لا معنى لها.. لذا وضعت السماعتين في أذني وأنا أبحث في الأغاني الموجودة في هاتفي علّني أعثر على أغنية تناسب الموقف الذي أمر به.. هذا ما أفعله دوما حين أمر بموقف مؤثر.

تمر الدقائق ببطىء والساعة تجاوزت الحادية عشرة مساء.. لن ينام أحد الآن.. هذه السهرة ستطول كثيرا كما يحدث دوما في تلك التجمعات العائلية.. فتسللت إلى الخارج متجهة ناحية الشاطىء.. سكون رائع يسود المكان سوى من صوت مياه البحر.. أخرجت هاتفي النقال بيد مرتجفة.. لا أستطيع الانتظار أكثر.. لا أطيق فراق حبيبي!!!.

وضعت السماعة في أذني مرة أخرى كي لا أثير شكوك أحد.. لأبدو لمن يراني من بعيد وكأنني أجلس قرب الشاطئ وأتأمل المكان فحسب.. ضغطت على زر الاتصال ثم وضعت الهاتف في جيبي.. نبضات قلبي تزداد قوة مع كل رنة.. أسمع صوته على طرف الهاتف وهو يقول بلهفة:

- ألو.

قلت مباشرة دون مقدمات:

- لا أستطيع فراقك.. آمل أنك لم تمل الحديث معي يا حبيبي.

رد بهيام:

- حين تمل النجوم من الظهور ليلا.. سأملك أنا.

قلت بتوتر:

- أشد ما يخيفني هو (أنا) في عيون الآخرين.. لذا أريد أن أعرف.. كيف كان انطباعك عني؟!.. أرجوك أخبرني.. يا إلهي.. أشعر أنني فقدت عقلي!!.

رد بذات الهيام:

- أنا أحبك.. هذا هو انطباعي.. والجنون في الحب منتهى العقل يا حبيبتي.. فكيف يحب الإنسان ويكون عاقلا؟!.

لا يمكن أن يكون هذا حب مراهقة.. مستحيل.. إنني أقرأ أحيانا عن تقارب الأرواح لأسباب مجهولة.. إذ يقال إنه عندما يرى الإنسان زوجة المستقبل.. يشعر براحة نفسية تجاهها ويبدأ

الشعور باليقين يتزايد عنده أن هذه الفتاة ستكون شريكة حياته.. فنجده يقدم على الزواج منها.. والأمر سيان بالنسبة للفتيات بالطبع.. وربما هذا يفسر كيف يرفض البعض فكرة الارتباط قبل أن يقرر الزواج فجأة أمام دهشة الجميع إذا عثر على الشريك المناسب.. الشريك الذي تقاربت روحه معه.. ما مدى صحة هذا الكلام؟!.. لا أعلم.

تحدثنا كثيرا.. عن كل شيء بشغف ولهفة.. كحال المكالمات الهاتفية الأولى بين أي حبيبين والتي تكون غالبا الأروع والأجمل.. حين يكتشف كل منهما عالم الآخر بشغف ويتوغل فيه.. وقد علمت من (مشعل) أنه سيتخرج هذا العام من المرحلة الثانوية ليلتحق بالجامعة.. كما أخبرني أن والده -رحمه الله- قد وفر له مبلغا لا بأس به يضمن لنا زواجا مستقرا إلى أن يتخرج ويقود حياته بنفسه.. نعم.. لقد وصل الأمر إلى الحديث عن الزواج ونحن في هذه السن المبكرة ومن أول مكالمة هاتفية.. تخيلوا هذا!!!.. وأخبرني أيضا أنه يزور الشاليه الخاص بأسرته برفقة والدته.. على أن يصل أقاربهم غدا.

هنا يجب أن أتوقف قليلا.. وأتحدث عن التشابه المريب غير المعقول بيننا كونه أغرب من مشاعرنا تجاه بعضنا.. ف. (مشعل) ينوي الالتحاق بالجامعة الأمريكية ابتداء من العام القادم حال تخرجه.. وهذا ما أنوي فعله أيضا حال تخرجي من المرحلة الثانوية.. تظنون أنها صدفة؟ !!.. لن تظنوها كذلك لو علمتم أن (مشعل) يكبرني بعام واحد بالتمام والكمال!!.. إذ يتشابه تاريخ ميلادنا تماما.. نفس اليوم ونفس الشهر.. فقد ولد كلانا في العاشر من (يناير) في سنتين مختلفتين!!!.. إنها صدفة خارقة من العسير جدا أن تحدث.. حتى إنني لم أصدقه في البداية.. لكني تذكرت أنه هو من أخبرني بتاريخ مولده قبل أن يعرف تاريخ مولدي أصلا.

ولم يكن هذا أغرب ما في الأمر.. فوالدانا يحملان نفس الاسم!!!.. قد يظن البعض أنه يخدعني.. وربما استخرج بعض المعلومات عني لإيقاعي في حبائله.. هذا ما قالته ابنة عمي ليلتها بعد الانتهاء من مكالمتي والعودة إلى الشاليه.. وهو كلام منطقي كما قد يبدو للوهلة الأولى.. إلا إنه لن يكون كذلك لو علمتم أننا نحب ذات الأفلام وذات الأغاني.. وذات الأطعمة.. كما اكتشفت أن (مشعل) سافر إلى (النمسا) منذ 3 سنوات مع والدته وخالته.. وسافر قبلها بعامين إلى (بلجيكا).. حسنا.. أنا أيضا كنت في (النمسا) مع أسرتي منذ 3 سنوات.. وكنت قبلها بعامين في (بلجيكا).. بل وفي نفس التاريخ في المرتين لكني لم ألتق ب. (مشعل) هناك!!!.. صدقوني سأصيبكم بالملل لو تحدثت عن كل أوجه التشابه بيننا.

3 ليال قضيتها في الشاليه كانت كالحلم.. فكدت أنسى البيت والمدرسة وأهلي.. إذ بدت لي أيامي هنا كل حياتي.. كنت أقضي الوقت بأكمله وحتى فترة المغرب مع أفراد العائلة.. لتبدأ في فترة الليل حياتي السرية مع (مشعل).. أتحدث معه عبر الهاتف حتى ساعة متأخرة وبوجود ابنة عمي معي كي لا أثير شكوك أحد.. كما قابلته مرة أخرى وقضيت معه ساعة أو أكثر قليلا.. نمشي على الشاطئ وننظر إلى النجوم شاعرين أننا نعيش حياة وردية جميلة لا نريدها أن تنتهي.

ماذا حدث بعد ذلك؟ !!.. انتهت الإجازة.. وتذكرت أخيرا عالمنا الحقيقي الذي أحياه في بيتنا بمنطقة (الزهراء).. ومدرستي.. وكل شيء آخر.. لنعود إلى البيت وتعود حياتي إلى وتيرتها المعتادة.. لكني ظللت أتواصل ب.(مشعل) يوميا وأتحدث إليه باستمرار قبل النوم.. لأكتشف يوما بعد يوم مزيدا من الأمور المتشابهة بيننا.. و.. لم يطل الأمر كثيرا.. فبعد علاقة حب استمرت سنة واحدة تخرجت فيها من المرحلة الثانوية وانتقلت للدراسة في الجامعة الأمريكية.. تقدم لخطبتي!!.

بالطبع فوجئ والدي بطلب الخطبة هذا.. ورفض مجرد التفكير بالأمر كوننا صغارا في السن وزيجة كهذه ستكون متهورة جدا وعلى الأرجح ستنتهي بالطلاق على حد قوله.. فكان يقول بحزم:

- أنت صغيرة يا ابنتي.. ولم تعيشي حياتك بعد.

فأرد بجرأة غير معهودة وبفصاحة لم أظن يوما أنني أمتلكها:

- ولكن يا أبي.. لا أريد أن أعيش.. أريد أن أحب أولا.. فإن أحببت.. أتت الحياة تلقائيا!!!.. إن الحب فوق العادات والتقاليد.. فوق القانون.. فوق كل الأعراف.

يقول بحدة:

- لو كان هناك شاب آخر مثله بهذا الاستقرار الدراسي والمادي والنفسي لما تهور وأقدم على هذه الخطوة المبكرة.. إنه يتصرف بغرابة تنافي ما توحي به رزانة عقله حين قابلته.

فأرد بذات الجرأة:

- لا يوجد شاب مثله يا أبي!!!.

ينظر إلي باستغراب لهذه الجرأة دون أن يرد.. إنها المرة الأولى التي أشعر فيها أن القلب جهازا رائعا!!.. فهو لا يتحدث ولا ينطق.. إلا أنه -بصورة أو بأخرى- يخبرك كيف تتصرف.. وقد أخبرني قلبي أن ما أفعله هو الصواب.. كما بدا واضحا أن أبي يشعر بحرج هائل.. وكذلك والدتي.. لأن الشاب لا غبار عليه بالفعل ولا يوجد سبب واحد لرفضه سوى عامل السن.

لذا.. وبعد إلحاحي المستمر.. ومحاولات (مشعل) المستمرة.. وافق والداي على الخطبة فقط.. على أن يتم عقد القران بعد سنة أخرى من الآن.. ولم يخفَ على أفراد عائلتي التشابه المريب بين حياتي وحياة (مشعل).. حتى إن أبي لم يصدق في البداية ما عرفه عنه.. وظن أن الأمر لا يتجاوز مزحة سخيفة.. ولا ألومه على ذلك بكل تأكيد.. لكن.. عندما تأكد من كلامي.. لم يكن يملك سوى تصديق الأمر وإيعازه إلى الصدفة رغم غرابته.. وها أنا الآن أعيش قصة حبي مع (مشعل) وأتحدث إليه طوال الوقت ولا نفترق أبدا بعد أن أصبح خطيبي رسميا.

أعترف أن ما أعيشه هو حالة حب من النادر أن تتكرر.. فحبيبي يعتبر نسخة ذكورية مني.. أو ربما أكون أنا نسخة أنثوية منه!!!.. لا أعلم.. ولا أنسى كلمة (مشعل) حين قال برومانسية قتلتني:

- كنت أخشى أن يكون قدري ألا أعيش قصة حب معك.. بل أكتبها في مذكراتي فقط!!.. والآن أدرك كم أنا محظوظ.. لأنني سأعيش قصة حبنا هذه كل يوم من حياتي.

لقد قررت بعد فترة من خطوبتنا واستقرار الأمور أن أبحث عن أسباب التشابه المريب بيني وبين (مشعل).. إذ بحثت كثيرا في مواقع الإنترنت.. وراسلت بعض الجهات المختصة التي تبحث في الظواهر الغريبة والخارقة.. يقينا مني أن قصتي غير مألوفة وتندرج تحت ذلك البند.

لكن.. لم أجد تفسيرا عند أحد.. الجميع يتحدث عن الصدفة فقط.. وهو تفسير غير معقول.. لذا واتتني فكرة استشارة طبيب نفسي.. لا أدري لماذا.. ربما لأن كلمة (طبيب نفسي) تعطيك انطباع أنه قد يفهم في مثل هذه الأمور.. فالتقيت صدفة بالدكتور (....) الذي نشر مذكراته سابقا بسلسلة شهيرة حملت اسم (حالات نادرة) ([21]).. حيث أخبرته بكل تفاصيل قصتي.. ولم

يصدقني في البداية كما هو مُتوقع.. وظن إنني مجرد مراهقة تحلم وتبحث عن الحب المستحيل وعن علاقة أسطورية كحال كل الفتيات في مثل سني.. لكنه اقتنع أخيرا بعد أن التقى ب(مشعل) بنفسه.. وتأكد من أوجه التشابه العديدة بيننا.. ليطلب مني أن أمنحه مهلة للبحث والتفكير في الأمر كونها قصة جديدة من نوعها لم يسمع بمثلها في حياته.

وبعد حوالي أسبوعين أو أكثر قليلا.. اتصل بي وأخبرني أن هناك تفسيرا غريبا للغاية خطر في ذهنه بعد أن أجرى أبحاثا طويلة في الكتب ومواقع الإنترنت عن قصص مشابهة لقصتي.. وهو يرى أن تفسيره هذا قد يكون الوحيد المنطقي.. وإن كان لا يجيب على كل التساؤلات.

لقد أخبرني أن هناك صدفا خارقة حدثت بين الكثير من الشخصيات التي عاشت في فترات متباعدة من الزمن وفي حقب تاريخية مختلفة.. فهناك مثلا تشابه مريب بين الزعيمين النازي (أدولف هتلر) والفرنسي (نابليون بونابرت) رغم إنهما عاشا في حقبتين مختلفتين ([22]).. كما تحدث أيضا عن تشابه آخر أكثر غرابة بين الرئيسين الأمريكيين السابقين (جون كينيدي) و(إبراهام لينكولن) ([23]).

وهذه الدراسات التي عثر عليها الطبيب النفسي جعلته يطرح تساؤلا هاما للغاية وطريفا بنفس الوقت.. فلو قدر لهذه الشخصيات التاريخية -التي تتشابه في أمور كثيرة كما هو واضح- أن تعيش في نفس الحقبة الزمنية.. فهل ستنشأ بينهما حينها علاقة صداقة وثيقة؟ !!.. أو لنطرح السؤال بصيغة أخرى: هل هناك تقارب روحاني معين أوجد تلك التشابهات العديدة بين هذه الشخصيات رغم الفوارق الزمنية الهائلة بين حياة كل منهم؟ !!.. هل سيشعر (هتلر) بالألفة تجاه (نابليون)؟!.. تماما كالألفة التي شعرنا بها أنا و(مشعل)؟!.. دعكم من أن تقاربي ب(مشعل) بين شاب وفتاة مما يجعله أكثر قوة دون شك!!!.. تساؤل يثير خيالات لا تنتهي.. فقد يكون هناك تقارب روحاني معين بين أشخاص محددين في التاريخ سببه غير واضح حتى الآن.. وهؤلاء الأشخاص قد يلتقون ببعضهم كما حدث معي و(مشعل).. وقد لا يلتقون أبدا في 99% من الحالات.. والأسباب كثيرة وواضحة.. فأحدهما قد يعيش في (هولندا) مثلا والآخر في (أستراليا)!!!.. أو أن كل منهما قد عاش في حقبة زمنية مختلفة ولم يدركا بعضهما.

وهذا قد يطرح تساؤلات أخرى أيضا.. فقد يوجد شخص في مكان ما يشبهك أنت عزيزي القارئ بأمور كثيرة لكنك لم تلتقِ به حتى الآن!!.. ولو التقيت به يوما.. فربما ستصاب بالدهشة.. وستشك للحظة أن هناك خدعة ما.. بعد أن تكتشف أن ذلك الشخص يشبهك في أمور عديدة..

كتاريخ الميلاد.. أو اسم الوالدين.. أو تشابه الميول والطباع والهوايات.. إلخ.. إن أوجه التشابه لا تنتهي أبدا.. تستطيع أن تبدأ في البحث من خلال تاريخ ميلادك.. أو اسمك.. أو اسم أحد والديك.. طريقة البحث الآن لم تعد عسيرة.. جرب.. وقد تلتقي في هذه الحالة بفتاة أحلامك أو فتى أحلامك -كي لا أغضب أقراني الفتيات- أو صديق جديد سيكون حينها أقرب أصدقائك إلى قلبك!!!.

ما مدى دقة هذا الكلام؟!.. هل من الممكن أن يكون ما قاله الطبيب النفسي هراء؟!.. لا أدري.. إن قصتي مثل تلك القصص المتعلقة بالأشباح.. لا نستطيع إثباتها.. ولا نستطيع نفيها بدلائل قاطعة.. لكنها على الأقل تحوي حقائق ثابتة لا يمكن إنكارها.. وإن كنت عاجزة عن تفسيرها بصورة أفضل مما فعل الطبيب النفسي.

هذا ما حدث معي.. وقد يحدث معكم أيضا.. ستتغير حينها حياتكم كثيرا إلى الأفضل.. فلا أستطيع أن أنكر شعوري الشديد بالسعادة كوني قد عثرت على فتى أحلامي وارتبطت معه ارتباطا نفسيا وثيقا لا يوصف ومن النادر أن يعيشه المحبّون.. و.. ماذا بعد؟!.. لا أعرف ما أقول.. فأجمل لحظات الفرح حين تنتهي الحروف وتبقى عاجزا عن وصف سعادتك.. لقد انتهت حروفي.. ولم تنتهِ فرحتي.. لأنني أعيش قصة حب خارجة عن المألوف ستستمر بالزواج ولن تنتهي عنده.. قصة حب.. بمقاييس مختلفة!!.



بعيدا عن الشبهات!!

على رجل الأعمال أن يحظى بوقت جيد أحيانا بعيدا عن زحمة العمل.. أليس كذلك؟!.. هذا ما قلته لنفسي أثناء وجودي في تلك الدولة الخليجية من أجل صفقة تجارية أنهيتها بنجاح منذ ساعات قليلة.. إذ شعرت للحظة أنني غارق في العمل وأسافر دوما من أجله وأمنحه كل وقتي.. حتى أنني لم أتزوج رغم تجاوزي سن ال 40!!.

تدور تلك الخواطر في رأسي وأنا جالس في صالة استقبال الفندق أعبث في هاتفي بشرود وقد تبقى أمامي يومان للعودة كوني أنهيت الصفقة التجارية قبل موعدها.. أفكر إن كان الأجدر بي أن أخرج قليلا للذهاب إلى السينما.. أو أقضي بقية الوقت في غرفتي.. ثم.. تشتت تفكيري حين رأيت شقراء فاتنة خلبت لبي وهي تمر أمامي مع زوجها -أو صديقها- متجهين إلى ركن المشروبات الكحولية.. فقد انتابني الجنون فجأة.. واتخذت قراري بعد أن راودتني رغبة ملحة بقضاء بعض الوقت مع فتاة جميلة.

رحت أتصفح مواقع التواصل الاجتماعي عبر هاتفي باحثا عن شيء كهذا.. لتقع عيني على ذلك الحساب.. فتاة في أوائل العشرين تعرض نفسها مقابل المال!!!.. نعم.. هذا ما أبحث عنه.. تصفحت صور الفتاة وبياناتها الشخصية بإعجاب لملامحها الأوروبية الدقيقة وشعرها الأشقر الجميل وقوامها الفارع.. كانت رائعة بحق.. تستحق المبلغ الفادح الذي تشترطه في حسابها.. لذا لم أتردد.. فطلبتها مباشرة من خلال رقم الهاتف الموجود في صفحتها.

لحظات أترقب فيها الصوت الأنثوي الذي سيرد.. ثم.. صوت دافئ حميم يسألني عن هويتي بإنجليزية راقية.. سألتها عن الإعلان الذي وجدته عنها.. وإن كانت مستعدة أن تقضي معي (ليلة حمراء) كما يقولون دوما.. فأجابت موافقة بعد أن أخبرتها باسم الفندق الفخم الذي أسكنه.. شرط أن أدفع لها المبلغ المطلوب فور وصولها.. وافقْت بلهفة.. واشترطت بدوري أن تكون كما تبدو في الصور.. وإلا سأطردها مباشرة دون أن أدفع لها شيئا.

بعد أكثر من ساعة.. وبعد أن قمت بالاستعداد جيدا لهذه الليلة.. سمعت طرقات هادئة على الباب.. فتحت على عجالة.. وإذ بفتنة صارخة تقف أمامي.. فتاة شقراء تبدو أجمل من صورها بكثير!!!.. ترتدي ثيابا تكشف أكثر مما تخفي من جسدها.. دعوتها إلى الداخل مفتونا مبهورا.. لتدخل بهدوء وتجلس على الكرسي في غرفتي واضعة ساقا فوق ساق.. وتلتفت حولها بهدوء لتبدي إعجابها بالغرفة الأنيقة والإضاءة الهادئة.. سألتها إن كانت تريد أن تشرب شيئا.. فطلبت مشروبا كحوليا خاصا.. فتحت الثلاجة وأعطيتها إياه دون تردد.. فتحته ببطء ورشفت منه قليلا.. عندها تذكّرْت شرطها.. فأخرجت من محفظتي المبلغ المتفق عليه ومنحتها إياه عن طيب خاطر.. لتأخذه وهي تنظر إلي ممتنة.. ثم طلبَت الذهاب إلى الحمام استعدادا للوقت الذي سنمضيه معا.. أومأت برأسي موافقا وأنا أشير لها إلى الحمام بابتسامة واسعة دون أن أتخيل للحظة أنها المرة الأخيرة التي سأراها فيها على قيد الحياة!!!. نعم.. فقد دخَلَت الحمام وتركتني في الغرفة أنتظر خروجها بفارغ الصبر.. إلا أنها لم تخرج أبدا رغم مرور أكثر من ربع ساعة!!!.. صمت تام يخيم على المكان لا يوحي أبدا بوجود شخص آخر معي.. فذهبت لأطرق الباب وأسألها بصوت متوتر إن كانت على ما يرام.. ثم بشيء من الحدة وأنا أنادي عليها.. لكن.. لا أحد يرد.. شعرت بالقلق وأنا أفكر بما يمكن أن يكون قد حدث لها.

أكرر محاولاتي الفاشلة بطرق الباب وأحيانا دفعه بكتفي كما يفعلون في الأفلام وأنا أنادي عليها بنفس الوقت.. حتى بت أخشى أن يكون قد أصابها مكروه ما.. أو ربما.. ماتت!!.. أفزعني الخاطر كثيرا وأنا أطرق الباب للمرة العاشرة وأنادي عليها دون جدوى.. فوجدت أن لا مفر من الاتصال بإدارة الفندق لطلب المساعدة.. هرعت إلى الهاتف بالفعل.. وأخبرت الموظف المسؤول بصوت مضطرب أن يأتي أحدهم إلى غرفتي بسرعة لفتح باب الحمام.. هكذا دون أن أشرح له السبب.

جلست أنتظر بقلق وساقاي تهتزان دون توقف.. إلى أن سمعت طرقات هادئة على باب غرفتي.. وإذ بأحد عمال الفندق ينظر إلي مبتسما.. فطلبت منه أن يفتح باب الحمام المقفول من الداخل دون أن أشرح له شيئا.. ليستجيب مباشرة ويتصرف باحترام دون سؤال.. إذ وضع مفكا في القفل ليفتح الباب بسهولة.. وقد كنت مستعدا لهذه اللحظة.. إذ أمسكت المقبض بسرعة لأجعل الباب مواربا.. ثم طلبت من العامل أن يخرج بعد أن نقدته بقشيشا محترما.. ليخرج والفضول باديا على ملامحه رغبة منه بفهم ما يحدث.. ولا ألومه على ذلك بالطبع.

دخلت الحمام حال خروج العامل.. لأجد الكارثة!!!.. الفتاة ملقاة على الأرض.. مغمى عليها؟!.. لا أظن.. أتحسس نبضها.. يبدو لي أنها فارقت الحياة.. نظرت حولي بذعر.. لأنتبه إلى وجود حقنة صغيرة بجانبها.. وعلامة الحقن واضحة في ذراعها.. الأمر لا يحتاج إلى ذكاء.. لقد كانت تتعاطى المخدرات.. ويبدو أنها تناولت جرعة زائدة قضت عليها.. هذا واضح.. يا إلهي.. خرجت من الحمام وجسدي يرتجف بأكمله.. عالما أنني وضعت نفسي في مأزق حقيقي كرجل أعمال شهير.. ففضيحة كهذه من الممكن أن تدمر سمعتي.

جلست على الأرض وأنا أفكر بضياع.. كيف سأتصرف؟!.. كيف؟!.. هل أقوم بتهريب الجثة خارج الفندق دون أن ينتبه أحد؟!.. مستحيل.. ثم إلى أين سأذهب بها بالضبط؟!.. ووسط أجواء القلق والتوتر التي عشتها.. طرأت في ذهني فكرة.. فاتصلت بإدارة الفندق مرة أخرى.. وطلبت مسؤول الأمن للضرورة القصوى.

لم يتأخر كثيرا.. دقائق قبل أن أستجيب لمن يطرق باب غرفتي لأجد رجلا طويل القامة نحيل الجسد.. يرتدي بذلة رسمية وملامحه توحي بالجدية.. ألقى علي تحية سريعة.. فقلت مباشرة دون مقدمات وأنا أسمح له بالدخول:

- لدي مشكلة هنا.. و....

أخبرته بكل ما حدث بكلمات سريعة وأنا أقوده إلى الحمام ليرى المصيبة.. فاتسعت عيناه ذهولا.. وقال بتوتر واضح:

- لقد وضعت الفندق بأكمله في مشكلة يا سيدي.. كيف سنتصرف الآن؟!.

قلت بحدة:

- أنا لم أطلبك لتوضح لي الجوانب الساحرة لهذه الكارثة.. أريد حلا لتجنب الفضيحة.. إنني رجل أعمال معروف وشخصية عامة.. لا أريد الوقوع في المتاعب.. سأفعل أي شيء ليظل الموضوع سرا بيننا.

نظر إلي مفكرا.. ثم قال:

- مهلا.. دعني أفحص الفتاة.. فربما لم تمت!!.

قالها واتجه للحمام مباشرة دون أن ينتظر ردا مني.. فتبعته بعينيّ آملا أن يكون محقا.. لأجده يفحص الفتاة بيد خبيرة.. ويقول بأمل:

- الفتاة لم تمت بعد.. لكن نبضها ضعيف جدا.. تبدو في حالة خطرة!!!.

شعرت وكأن عبئا ثقيلا أزيح من صدري.. فهرعت مسرعا أفحص نبضها مرة أخرى.. بالفعل.. نبضها ضعيف للغاية.. لم أنتبه جيدا حين فحصتها في المرة الأولى.. إنها على قيد الحياة.. قلت بأمل:

- حاول أن تنقذها أرجوك.

حك ذقنه وهو يقول بحزم:

- ليس بيدي إنقاذها يا سيدي.. كل ما أستطيع فعله هو نقلها للمستشفى دون أن ينتبه النزلاء.. لكن -المعذرة- هذا لن يعفيك من التحقيقات.. إنها مسؤوليتك وحدك.. خاصة وأن الفتاة

قد تموت بأي لحظة.

قلت بعصبية:

- ما هذا الهراء؟!.. قلت لك إنني شخصية عامة.. لا يمكن أن تعرف الشرطة بتورطي في الأمر.. ستكون الفضيحة كبيرة.. أريد حلا آخر!!.

صمت أمام حدتي وهو يهز كتفيه معتذرا وكأن لا يوجد لديه ما يقدمه غير ما قاله للتو.. فنظرت إليه بتوتر.. ثم قلت بصوت مرتجف:

- اسمع.. إنني أعرض عليك مبلغا كبيرا لتنهي هذه المشكلة وتخلصني من الفتاة دون أن يعلم أحد بتورطي في الأمر.. ماذا تقول؟!.

رد بصرامة:

- إنني ضابط متقاعد في بلدي.. ولا أحد يشتريني بالمال.. ليس كل شيء قابل للشراء يا سيدي.

قلت بتحد:

- بل كل شيء قابل للشراء.. إنني أعرض عليك 200 ألف دولار.. هذا أكثر مما تجنيه في سنوات.. ماذا تقول؟!.

بدا واضحا أن الأمر أثار اهتمامه.. إذ عقد حاجبيه.. ليقول فجأة:

- هل.. هل أنت جاد في كلامك؟!.

هذا رائع.. لقد سال لعابه.. قلت بحماس وقد راودني الأمل بالخروج من هذه الكارثة: - سأقوم بتحويل المبلغ لحسابك الشخصي الآن وأمام عينيك.

قلتها وأنا أفتح جهاز الكمبيوتر المحمول وأطلب منه بياناته البنكية.. فنظر إلي طويلا وكأنه يزن الأمر بعقله.. ثم غمغم بتردد:

- وماذا سأفعل أنا بالفتاة؟!.

قلت بعصبية:

- لهذا سأدفع لك.. عليك أنت أن تفكر كيف ستتخلص من هذه المشكلة.

زفر بقوة.. وراح يسير بالغرفة بتوتر وهو يفكر بعمق.. وكأنه يعيش صراعا داخليا.. ليقول فجأة:

- أستطيع إخراجها سرا في عربة الطعام مع أحد عمال الفندق الذين أثق بهم.. ثم أذهب بها إلى عنوانها بعد أن أبحث في حقيبتها للاطلاع على بطاقتها الشخصية.. سأتركها في شقتها دون علم أحد.. فلو نجت.. لن تكون هناك مشكلة.. ولو ماتت.. سيعرف الجميع -بعد فحص الجثة- أنها ماتت بجرعة زائدة.. نحن سنغير مكان موتها فحسب ولن نرتكب أي جريمة.

سألته بقلق:

- ماذا لو كان أحدهم يقيم معها؟!.

مط شفتيه مفكرا.. ثم غمغم بهدوء:

- سأطرق باب سكنها أولا.. ولو فتح لي أحدهم.. سأدعي إنني أخطأت العنوان.. وسأجد بعدها وسيلة أخرى للتخلص من الفتاة.

شعرت باطمئنان كبير لكلامه.. وطلبت منه وضع ما قاله حيز التنفيذ.. لكنه أشار إلي بيده كناية عن دفع المبلغ.. فهرعت إلى جهاز الكمبيوتر المحمول ودخلت إلى حسابي البنكي.. دقائق قليلة أدخلت فيها بياناته الشخصية.. ثم:

- أنظر؟!.. هذا هو حسابك.. تم التحويل.. تستطيع التأكد بنفسك.

نظر إلى الشاشة باهتمام.. ليبتسم بذهول ويومئ برأسه موافقا وهو ينهض لتنفيذ التزامه من الاتفاق.. إذ أجرى اتصالاته واضعا خطته قيد التنفيذ.. فأخرج الفتاة بعربة الطعام وبمساعدة عامل يثق به على حد قوله.. لينتهي الجزء الأخطر والأهم من الخطة وتخرج هذه الفتاة من حياتي بأكملها بسلام.. وبالطبع نسيت أمر الاستمتاع بوقتي بعد ذلك.. إذ قررت الابتعاد عن هذا المكان إلى الأبد.. لقد تسمم الفندق بأكمله في نظري وبت أراه كالكابوس.. فقمت بحجز أقرب رحلة للعودة إلى بلدي بعد ساعات قليلة من تلك الحادثة.. ثم وضعت ثيابي في حقيبة السفر على عجالة.. واتجهت إلى المطار أخيرا.

أعترف أن قلبي لم يطمئن ولم أشعر أنني ابتعدت تماما عن المشكلة.. إلا بعد أن هبطت الطائرة في مطار بلدي.. لقد كدت أن أتعرض لفضيحة قد تدمر حياتي كرجل أعمال.. فضيحة وجود فتاة أو مومس -إن صح التعبير- في غرفتي.. وقد ماتت -ربما- بسبب تعاطي المخدرات.. لحسن الحظ أن تلك المصيبة مرت بسلام.. هذا ماضي وقد انتهى الآن.. تم رسمه ولن يخضع لأي تغيير.. المستقبل هو الذي يحمل كل الاحتمالات.. فلأحرص عليه ولأنسى ما حدث.. كلام بديهي للغاية لا ينتبه له أغلبنا في زحمة الحياة.. هكذا أقول لنفسي مطمئنا وأنا أسير نحو بوابة القادمين لأطوي تلك الصفحة السوداء من حياتي إلى الأبد.

عزيزي القارىء.. لقد انتهت القصة عند هذا الحد بالنسبة للبطل.. لكنها لم تنتهِ بالطريقة التي يظنها.. فهناك.. في البلد الخليجي الذي جرت فيه تلك الحادثة.. نجد الفتاة الشقراء التي كانت برفقة رجل الأعمال وقد استعادت عافيتها!!!.. نعم.. ها هي تجلس في شقتها وتقول لمدير الأمن في الفندق بمرح:

- لا أصدق أن الخطة نجحت هذه المرة أيضا.. هذا رائع.. رائع.

قال مدير الأمن ضاحكا:

- بكل تأكيد.. أنا حذر جدا.. ولا مجال أبدا لكشف أمرنا.. فأنت تبلغيني دوما برقم الغرفة التي ستذهبين إليها.. وأثناء وجودك مع النزيل.. أتجسس على المكالمات الهاتفية وأترقب اتصالا منه لإدارة الفندق.. حينها أعرف أنك نفذت جانبك من الخطة.. فأقوم بدوري بعد ذلك.. رجال الأعمال هؤلاء تهمهم سمعتهم كثيرا ومستعدون لدفع أي مبلغ لدرء الفضيحة والابتعاد عن التحقيقات التي قد تجرهم إلى مشاكل أكبر.. مع الأسف إن الفرصة بممارسة عمليات النصب هذه نادرة كوننا ننتظر لفترات طويلة كي يقطن هذا الفندق بالذات رجل ميسور الحال يخشى على سمعته ويطلبك أنت شخصيا.. إنها المرة الثانية فقط في سنة كاملة.

ردت بشيء من الدلال:

- لكنا جنينا مبالغ طائلة من هاتين المرتين.. والآن.. لا تنسَ نصيبي أرجوك.

قال بحزم:

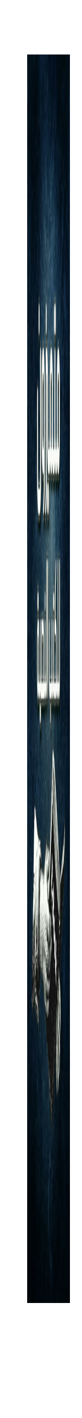
- بكل تأكيد يا حبيبتي.. إنني لا أظلم من يعمل معي.. حتى العامل الذي ساعدني بنقلك منحته أجره كاملا.

يقول هذا وهو يناول الفتاة رزمة مالية يسيل لها اللعاب.. ثم يردف:

- يجب أن نجد حلا آخر غير حقن نفسك بذلك الدواء الذي يبطيء ضربات القلب ويرخي الأعصاب.. أعلم أنه يخدع كل من يتأكد من نبضك فيظن أنك ميتة أو على وشك الموت.. لكني أخشى على حياتك يا حبيبتي.. يجب أن نجد حلا آخر.

فابتسمت بحنان وهي تمسك بيده.. وراح الاثنان ينظران إلى بعضهما برضى تام.. منتظرين الزبون القادم الذي سيذهب لنفس الفندق ويبحث في الإنترنت عن المتعة ثم يطلب هذه الفتاة تحديدا.. دون أن يتخيل للحظة أن هناك عملية نصب ضخمة تحاك حوله في مكان راق جدا كهذا.. بعيدا عن الشبهات!!!.

(تم الكتاب بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

الملاحظات

[←1]

(1) حقيقة بالطبع.

[←2]

(2) السايكوباثية (Psychopathy) مصطلح مشتق من الكلمة اليونانية (Psyche) وتعني (الروح) و (Pathos) وتعني (مشاعر المعاناة).. وقد استُخدمت الكلمة أول مرة عام 1847 في (ألمانيا).. والسايكوباثية اضطراب

نفسي خطير غالبا يكون بسبب سوء المعاملة أثناء الطفولة.. وأحيانا بسبب إدمان المسكرات.. أو حتى لأسباب وراثية.. ومن أهم صفات الشخصية السايكوباثية الغطرسة وحب العنف والتلاعب بالآخرين.. مع افتقاد الشعور بالتعاطف أو الندم على الأفعال الخاطئة.. لذا نجد السايكوباثي يتلذذ بتعذيب الحيوانات أو ضرب من هم أضعف منه.. وغالبا ما يقود هذا الاضطراب النفسي صاحبه إلى الإجرام بطبيعة الحال.. وربما أكثر جوانب الخطورة في الشخصية السايكوباثية أن صاحبها قادر على التعامل بوداعة ولطف مع الآخرين ونيل ثقتهم.. ثم استخدام ذلك في التلاعب بهم.. والغريب أن السايكوباث لا يمكن إخافته بالمفاجأة.. فمن الممكن أن يشاهد أي فيلم رعب مثلا يحوي العديد من اللقطات المفزعة دون أن ينتفض في مكانه كما يحدث مع عامة الناس.

[←3]

(3) يتحدث هنا عن (حمض الهايدروسيانيك) (Hydrocyanic Acid) والذي كان يسمى قديما ب(حمض البروسيك) (Prussic Acid).. وهو حمض يتوفر عادة على هيئة سائل أو غاز.. ويستخدم لرش الأشجار بهدف القضاء على الحشرات الزراعية.. وفي حالة استنشاقه بكميات قليلة جدا.. فسيؤدي هذا إلى ضعف عام وصداع قوي وهبوط في الضغط واختلاجات عصبية تنتهي غالبا بالوفاة.

[←4]

(4) تنسب تلك المقولة الى المؤرخ اليوناني (ثوسيديديس) (Thucydides) الذي توفي حوالي عام 400 قبل الميلاد.

[←5]

(5) (دييجو ألفيس) (Diogo Alves).. لص وسفاح شهير ولد في (إسبانيا) وعاش في (البرتغال).. ارتكب على الأقل 70 جريمة قتل في القرن التاسع عشر.. وقد تم القبض عليه وإعدامه شنقا عام 1841 م في مدينة (لشبونة) البرتغالية.. حيث تم الاحتفاظ برأسه في جرة زجاجية مع مواد كيميائية حافظة.. وذلك لدراسة دماغه ولفهم عقلية المجرمين كونه حالة فريدة من الإجرام.. ولا يزال رأسه موجودا حتى اليوم في كلية الطب بجامعة (لشبونة).

[←6]

(6) دائما يُطلب من المتهم أن يمثل الجريمة أمام رجال الشرطة كي يتم التأكد أنه الفاعل ولا يتستر على المجرم الحقيقي

[←7]

(7) (آلزهايمر) هو أحد أنواع (الخرَف).. وهو مرض شائع جدا ومعروف يصيب كبار السن في معظم الأحيان ويتسبب بعملية تدمير تدريجية لذاكرة الإنسان دون أن يتوصل الطب لسببه الرئيسِ.. أو حتى طريقة علاجه مع الأسف.. فكل أنواع العلاج التي تم اكتشافها تؤخر أعراضه فقط.. وقد سمي المرض بهذا الاسم نسبة إلى العالم الألماني (ألويسيوس ألتسهيمر) (Aloysius Alzheimer) الذي اكتشفه عام 1906.. علما بأن غالبية المصابين به تعدت أعمارهم 65 سنة.. ويمر المصاب بأعراض (آلزهايمر) عادة ب.

3 مراحل.. أولها عدم الانتباه لمرور الوقت ونسيان الأحداث القريبة والكثير من المفردات.. مع الميل إلى العزلة والانطواء والتفوّه بجمل لا معنى لها.. أما المرحلة الثانية فتبدأ بعجز المريض عن القيام بأمور يدوية بسيطة مثل شبك الأزرار أو الأكل باستخدام الملعقة.. كما يجد صعوبة في فهم بعض الكلمات البديهية.. وفي المرحلة الثالثة والأخيرة يعجز المريض عن الأكل بنفسه أو حتى استخدام دورة المياه.. ليصبح في النهاية كالطفل الرضيع.. وتكون هذه المرحلة صعبة ومؤلمة للغاية على أهل المريض.. ويذكر أن من أشهر من أصيبوا بهذا المرض الرئيس الأمريكي الأسبق (رونالد ريجان).. وأسطورة كرة القدم المجرية (فيرينك بوشكاش).. والفنان المصري العالمي الراحل (عمر الشريف).. وعادة ما تتراوح أعراض (آلزهايمر) بين 8 إلى 10 سنوات قبل وفاة المريض.

[←8]

(8) (متلازمة الغروب) أو (التوهان المسائي) (Sundowning) أعراض نفسية مجهولة السبب تحدث لكبار السن وقت غروب الشمس ودخول الليل.. وتصاحب أحيانا كثيرة أعراض (آلزهايمر).. إذ يحدث فيها زيادة في الهذيان والارتباك وربما الهلاوس.. مع أعراض سلوكية غريبة مثل الشتم والعنف الجسدي أحيانا.. أو التجول والتحرك بشكل عشوائي.. الأمر الذي قد يعرض المريض لخطر الضياع في حال خروجه من البيت لعدم قدرته على تعرف طريق العودة.

[←9]

(9) النفضة النومية (Hypnic jerk) هي نفضة تحدث للجسم في بدايات النوم غالبا.. ويصاحبها الشعور بالسقوط من مكان مرتفع.. وأهم أسبابها تناول الكافيين بكميات كبيرة.. أو القلق والتوتر والإجهاد.. ويظن بعض العلماء أن سبب (النفضة النومية) عضلات الجسم التي تبدأ بالاسترخاء تدريجيا قبل مرحلة الدخول إلى النوم العميق.. فيدرك الدماغ إشارات الاسترخاء هذه ويسيء تفسيرها أحيانا على أنها مؤشرات سقوط.. ليرسل إشارات سريعة إلى عضلات الجسم كي تستيقظ في محاولة لتحقيق التوازن.

[←10]

(10) كل ما ذكر عن الأحلام المتجلية (Lucid Dreams) حقيقي.. وطريقة ممارستها -بالمناسبة- متاحة على شبكة الإنترنت.

[←11]

(11) أحلام اليقظة (Daydreams) هي باختصار أن نرسم بخيالاتنا حياة أفضل لنا.. ليخف القلق والتوتر الذي نعيشه في حياتنا اليومية.. فالفقير يحلم بالثراء ويصور لنفسه سيناريو خيالي بأنه يملك قصرا وسيارة فارهة مثلا.. ويسافر إلى كل مكان.. والفاشل قد يتخيل أنه وصل إلى قمة المجد وحقق أعلى الشهادات.. ويلجأ معظم الناس إلى أحلام اليقظة بين الحين والآخر لتحسين حالتهم النفسية.. أما الاستغراق فيها فيؤدى إلى أمراض نفسية خطيرة قد تصل إلى خلل عقلي يؤدي إلى العجز عن التمييز بين الواقع والخيال.

[←12]

(12) (الجاثوم) (Incubus) مصطلح يطلقه الناس على ما يصيبهم من شلل لعضلات الجسم مع الشعور بالاختناق حال الاستيقاظ من النوم أو الخلود إليه.. ويمكن أن يصاحب الشلل النومي هذا نوعا من الهلوسة.. حيث يستمر الأمر ثوان قليلة إلى بضع دقائق.. قبل أن يعود توازن المرء فيغرق في النوم مرة أخرى.. أو يستيقظ تماما.. والسبب العلمي لهذه الظاهرة هو الدماغ الذي يقوم بإرخاء العضلات قسرا أثناء النوم فتصاب بما يشبه بالشلل.. ويقوم الدماغ بذلك حماية للجسم الذي يتعرض للإرهاق والتوتر.. أو السهر المتواصل.. ويكون شلل النوم مخيفا عادة للشخص الذي يعانيه.. فلا يصبح قادرًا على الحركة أو الكلام إلى أن يدرك المخ أنه استيقظ.. وتذكر بعض الدراسات أن 60% من البشر عانوا من شلل النوم مرة واحدة في حياتهم على الأقل.. وللدقة اللغوية نقول إن (الجاثوم) في واقع الأمر عبارة عن روح شريرة.. أو شيطان.. أو جني يفترض أنه ينام فوق الأشخاص أثناء نومهم و(يجثم) على صدورهم -ومن هنا جاء المسمى- لذا فإن مصطلح (الجاثوم) الذي يطلقه الناس على تلك الحالة خاطىء وغير صحيح علميا.. فالاسم الصحيح هو (شلل النوم) (Sleep Paralysis).

[←13]

(13) (جوليانا ويتمور) (Juliana Wetmore) طفلة أمريكية ولدت مصابة بمرض نادر أدى إلى تشوه وجهها بشكل كامل.. لدرجة أن الأطباء نصحوا الأم بإجهاض الجنين بدلا من أن يولد مشوها.. لكن الأم أصرت على إنجاب طفلتها رغم كل التحذيرات.. لتولد (جوليانا) بوجه تنقصه حوالي 35% من العظام.. مع عظام ناقصة في الجهاز السمعي مما جعلها صماء أيضا.. وقد توقع الأطباء ألا تعيش (جوليانا) أكثر من أيام قليلة.. لكنها كانت أقوى مما توقع الجميع.. حيث ظلت على قيد الحياة مع الرعاية الصحية المكثفة التي وفرها لها والداها.. بل وقاما أيضا بإلحاقها بمدرسة خاصة بالأولاد الصم حين بلغت السادسة من العمر.. فاتضح أنها ذكية للغاية كون دماغها لم يتأثر بهذا التشوه.. إذ كانت تقاريرها الدراسية عالية جداً.. فاستمرت في تفوقها إلى أن بلغت سن المراهقة منذ فترة قصيرة.. علما بأنها خضعت لحوالي 45 عملية جراحية.. بعضها ضرورية للإبقاء على حياتها.. وأخرى تجميلية.. لكن وجهها لا يزال مشوها رغم ذلك.. وجدير بالذكر أن المرض النادر الذي تعانيه (جوليانا) يطلق عليه اسم (أعراض تريشتر كولينز) (Treacher Collins Syndrome) نسبة إلى الجراح البريطاني الذي اكتشف المرض وتحدث عنه بالتفصيل في بدايات القرن الماضي.

[←14]

(14) حادثة حقيقية

[←15]

(15) راجع سلسلة إصدارات (حالات نادرة) لنفس المؤلف.

[←16]

(16) الذهان (Psychosis) مصطلح طبي يصف الحالات العقلية التي يحدث فيها خلل بالإدراك والتفكير المنطقي.. علما بأن الأشخاص الذين يعانون الذهان قد يتعرضون لنوبات هلوسة ويتمسكون بقوة بأفكار وهمية تفقدهم الاتصال بالواقع.. ويلعب التغيير الكيميائي في المخ دورا أساسيا في الإصابة بالذهان.. حيث يصيب أي حاسة من حواس الإنسان.. فيتخيل أشخاص لا وجود لهم.. أو يسمع أصواتا غير حقيقية.. وأسباب الذهان قد تكون عضوية أو نفسية.. أو حتى بسبب تعاطي المخدرات.

[←17]

(17) الهستيريا (Hysteria) مرض عصبي تتحول فيه الانفعالات والقلق والصراعات والإحباطات المزمنة التي يعانيها الشخص إلى أعراض بدنية دون أن يكون لها أساس عضوي.. وتعتبر المبالغة في إظهار الانفعالات من أهم سمات المصاب بأعراض الهيستريا.. وقد عُرفت الهستيريا منذ القدم حين اكتشفها الطبيب اليوناني الشهير (أبقراط).. ولاحظ أن المصابين بهذا المرض هم من النساء.. فظن الأمر مرتبطا بالحاجة العاطفية أو الجنسية للمرأة.. وأن له علاقة بالرّحِم.. لهذا فإن كلمة (هستيريا) مشتقة من كلمة (رحم) باللغة اللاتينية.. إلا أن هذه النظرة قد تغيرت في العصر الحديث حين تم اكتشاف حالات لرجال وشيوخ وأطفال أصيبوا بهذا المرض.. أما أسباب الهستيريا فكثيرة.. منها نفسية بسبب الإحباط وخيبة الأمل في تحقيق هدف أو مطلب.. أو الفشل في علاقة عاطفية.. أو حتى الغيرة والحرمان ونقص العطف وعدم الشعور بالأمان.. وهناك أيضا التعرض لحادث مروري بليغ مثلا مما يترك أثرا سلبيا على شخصية الناجي.. كما تلعب التربية دورا مهما.. حيث يتقمص الشخص الهستيري أحيانا سمات أحد الوالدين إذا كان أحدهما يعاني تلك الأعراض.. ودائما ما نجد المصاب بأعراض الهستيريا يحاول أن يستدر عطف الناس بصورة ملفتة للنظر.. كأن يدعي الإغماء أو المرض.. أو يبالغ في أناقته من أجل حب الظهور ولفت الانتباه.

[←18]

(18) الانهيار العصبي مصطلح غير طبي يستخدم لوصف حالات حادة من الاكتئاب والتوتر العصبي والاضطراب.. حيث يشعر بها المريض النفسي وتجعله يفقد السيطرة على أعصابه.. ومن هنا جاء الاسم.. أما أهم أعراض الانهيار العصبي.. فهي اضطراب التفكير وتسارعه.. البكاء.. الدوار.. الغثيان.. تسارع التنفس.. تسارع نبضات القلب.. التعرق.. التفكير جديا بالانتحار.. أما الأسباب فغالبا ما تكون بسبب ضغوط الحياة.. كالغرق في الديون.. أو فقد شخص عزيز أو حتى قصة حب فاشلة.. إلخ.

[←19]

(19) التقمص العاطفي (Empathy) هو انتقال المشاعر والأحاسيس من شخص إلى شخص آخر مهما بعدت المسافة بينهما.. وقد يلعب الإنسان -من خلال التقمص العاطفي- دور المرسِل أو المتلقي.. ورغم العديد من الدراسات والتجارب التي أجريت حول الأمر بين التوائم.. أو بين الأم وأطفالها وحالة الضيق التي تنتابها إذا ما تعرض أحدهم للخطر.. إلا أن تلك الدراسات ما تزال تفتقر إلى الأدلة العلمية الدقيقة.

[←20]

(20) للعلم فقط فإن استنساخ البشر ظهر كفكرة في الأذهان في ثلاثينيات القرن الماضي على الأرجح.. من خلال عالم ألماني مغمور كان هدفه الأول البحث عن وسيلة لتخليد الزعيم النازي (هتلر) من خلال صنع عشرات النسخ من شخصيته المسيطرة.. وقد راقت الفكرة ل(هتلر) كثيرا.. فأصدر حينها أوامره بتحويل النظرية إلى حقيقة.. وبدأ العلماء يدرسونها.. وتأكدوا أنها ممكنة نظريا.. لكن التكنولوجيا المتوفرة في تلك الفترة لم تكن متقدمة بما فيه الكفاية.. لذا ظل الاستنساخ قنبلة موقوتة غفل عنها العالم لعقود طويلة إلى أن انفجرت مرة أخرى في تسعينيات القرن العشرين.. حين أعلن العلماء أنهم توصلوا إلى استنساخ النعجة (دوللي) (Dolly) عام 1996.. فكانت هذه أول مرة في التاريخ ينشأ كائن حي من أنثى فقط دون ذكر!!.. ثم راح العلماء يدرسون إمكانية استنساخ البشر.. وبدا الأمر ممكنا للغاية.. إلى أن برزت بعض التساؤلات المعقدة.. أولها علاقة (المستنسِخ) ب(المستنسَخ).. هل سيكون توأما له.. أم ابن.. أم ماذا؟!.. دعكم من الأسباب الأمنية بالطبع..

فلو ارتكب المستنسِخ أو المستنسَخ جريمة ما.. فلن يتمكن القضاء من تحديد الفاعل الحقيقي نظرا للتطابق التام بينهما في كل شيء.. حتى في البصمات.. الأمر الذي دعا عدد كبير من دول العالم إلى إصدار قوانين تمنع استنساخ البشر.. حتى وصل عدد الدول التي تمنع الاستنساخ إلى حوالي 70 دولة.. علما بأن أحد معاهد الأبحاث في الدول النامية أعلن في مؤتمر صحفي منذ سنوات قليلة أنه قام باستنساخ آدمي بالفعل.. لكن تلك الادعاءات ظلت بدون أدلة.. وقد تحدث المؤلف عن الاستنساخ بشيء من التفصيل في إصداراته السابقة.

[←21]

(21) راجع سلسلة (حالات نادرة) للمؤلف.. علما بأنها غير مرتبطة إطلاقا بقصتنا هذه.

[←22]

(22) هناك دراسة تاريخية شهيرة بالفعل توضح تشابها غريبا بين الزعيم النازي (أدولف هتلر) والزعيم الفرنسي (نابليون بونابرت) اللذين عاشا في فترتين مختلفتين من التاريخ.. فقد اندلعت الثورة الفرنسية -التي كانت بداية ظهور (نابليون)- عام 1789.. في حين وقعت الثورة الألمانية -التي أنجبت (هتلر)- عام 1918 والفارق الزمني بين الحادثتين عاما.. واعتلى (نابليون) عرش فرنسا عام 1799.. في حين تسلم (هتلر) حكم (ألمانيا) عام 192.. والفارق الزمني 129 عاما!!.. وقد انفرد (نابليون) بإمبراطورية (فرنسا) عام 1804.. وانفرد (هتلر) بحكم ألمانيا عام 1933 والفارق الزمني 129 عاما!!.. كما بدأت حملة (نابليون) على روسيا عام 1815.. في حين بدأت حملة (هتلر) لغزو (روسيا) عام 1941 والفارق 129 عام.. وقد خسر (نابليون) معركة (واترلو) عام 1815 وفتحت الجبهة الثانية بنزول الحلفاء على شواطئ (فرنسا) عام 1944 وهو الحدث الذي كان بداية هزيمة (هتلر).. فكان الفارق بين الحادثتين 129 عاما أيضا.. وهناك أمور أخرى كثيرة يتشابه فيها تاريخ الزعيمين.. فكل منهما لم يولد في المكان الذي حكمه.. إذ ولد (نابليون) في جزيرة (كورسيكا) وحكم (فرنسا).. في حين ولد (هتلر) في (النمسا)، وحكم (ألمانيا).. وكل منهما كانت له ميول توسعية.. وكلاهما حاول غزو (روسيا) وفشل.. وكلاهما هزمته (إنجلترا)!!.

[←23]

(23) هناك سلسلة من الصدف والتشابهات بين حياة رئيسي (الولايات المتحدة الأمريكية) السابقين (لنكلن) و(كينيدي) والتي لا يجهلها أي متعمق في الماورائيات.. علما بأنهما عاشا في زمنين مختلفين.. تماما كما هو الحال مع (هتلر) و(نابليون).. إذ كان كلا الرئيسين متعاطفا مع الحقوق المدنية للسود.. وكلاهما تعرض للاغتيال يوم جمعة!!.. كما أن كل منهما تم اغتياله بحضور زوجته.. وكل منهما صرعته رصاصة في رأسه انطلقت من الخلف.. وقد خلف كل منهما نائبا يدعى (جونسون).. بل إن كل من الخلفين (اندرو جونسون) و(لندن جونسون) كانا قد نصحا الرئيسين ألا يذهبا حيث اغتيلا!!.. وكل من الرئيسين اختاره الحزب الديمقراطي من جنوب (الولايات المتحدة الأمريكية).. علما بأن زوجة كل من الرئيسين فقدت ولدا وهي تسكن البيت الأبيض.. ولا ننسى التشابه الآخر وهو أن أمين سر (كينيدي) كان اسمه (لنكلن).. وأمين سر (لنكلن) كان اسمه (كينيدي).. ولم تتوقف الصدف وأوجه التشابه بينهما عند هذا الحد.. إذ أن قاتلي (النكلن) و(كينيدي) تعرضا بدورها للقتل قبل أن تتم محاكمتهما.. وقد انتخب (لنكلن) رئيسا ل(الولايات المتحدة الأمريكية) عام 1860 وانتخب (كينيدي) عام 1960.. والفارق 100 عام.. ووُلِدَ (أندرو جونسون) نائب (لنكلن) عام 1808.. أما (لندن جونسون) نائب (كينيدي) فقد ولد في عام 1908.. والفارق الزمني 100 عام!!.. علما بأن سكرتير (لنكلن) ولد عام 1839 وسكرتير (كينيدي) ولد عام 1939 والفارق الزمني 100 عام أيضا.. كما أن (جون ولكس) قاتل (لنكلن) ولد عام 1839 و(لي هارفي) قاتل (كينيدي) ولد عام 1939 والفارق 100 عام.. وقد أطلق قاتل (لنكلن) النار وهو مختبئ في مسرح.. ثم هرب إلى مخزن.. بينما قاتل (كينيدي) كان قد أطلق النار من مخزن وفر إلى مسرح.. ويتكون اسم (لنكلن) من سبعة أحرف باللغة الإنجليزية (Lincoln) ويتكون اسم (كينيدي) من سبعة أحرف أيضا (Kennedy).. علما بأن نائب الرئيس (لنكلن) (اندرو جونسون) (Andrew Johnson) يتكون اسمه الأول من ستة أحرف.. ونائب الرئيس (كينيدي) (ليندون جونسون) (Lyndon Johnson) يتكون اسمه الأول من ستة أحرف أيضا!!.